

روايات رومانسية عالية
عبير



جَانِيتْ دِيلِي

سَيِّدَةُ الْقِصْرِ الْجَنُونِي



مكتبة نهر العذراء

LIILAS.COM

روايات رومانسية عالية عبير

سيدة القصر الجنوني

انتقلت

جولي من بلدتها في داكوتا الجنوبية حيث اكملت دراستها الجامعية الى لويزيانا بحثاً عن جذورها في ما اعتقدت انها منطقة احد اسلافها القدامى ولدى وصولها ومباشرتها البحث عما جاءت من اجله، تفاجئها في غابة كثيفة عينان سرعان ما تقع اسيرتهما... عينا رجل يدعى ستيف... يتحول اسرها فيهما قصة حب هادئة بالثقة والغيرة، بالفرح والشقاء، بالمتعة والعذاب. وفي اطار هذه القصة الجارحة، يبدو على ستيف انه لا يبالي، اذ كانت هناك فتاة اخرى ظنت جولي انها تشاركها الرجل الذي اعتبرته مرفأ لسفينته عذابها. وتقرر جولي العودة من رحلتها في موقف مشحون بالانهيار. وتعود هاربة، لكن الى أين؟

مكتبة زهر

LIILAS.COM

جمهورية مصر العربية

١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت : ٥١٤٩٥٥ - موبايل : ٠١٣٣٧٨٦٤٨

١ - حيث تدق الاجراس

استسلم الجواد الأبيض المرقط، على مضض، لضغط اللجام، وابتعد عن الأعشاب الخصبة، وأخذ رأسه يتمايل فى ايقاع وهو يخطو فى تناقل على الطريق. لقد شهدت عيناه خمسة عشر ربيعاً، ولم يعد يشب على قائمته الخلفيتين مرحاً، أو يرفع مقدمه بحركة مفاجئة، كما اعتاد أن يفعل من قبل. ولم يعد كذلك يدفع اللجام الحديدى من بين أسنانه. لقد أصبح سمينا وكسولا خلال سنى عمره، وبدأ كأنه يدخر طاقته ليطرد الذباب أو يلبتهم العشب الأخضر الطويل، لعله يكتسب القوة استعداداً لمواجهة فصل جديد من فصول الشتاء كما تعيشه ولاية داكوتا الجنوبية.

لم يكن الجواد بحاجة الى أن ينظر فى التقويم السنوى ليعرف أن شهر ايلول أوشتك على الرحيل. كان يكفيه أن ينظر الى الأشجار بأوراقها الخضراء وقد ظهرت عليها بقع ذهبية وبرتقالية، أو يرفع عينيه الى السماء ليرى الطيور تستعد للبدء فى رحلة الهجرة مع العلامات الأولى لبرد الشتاء. وحقول القمح المجاورة للمرعى، المتموجة، نضج محصولها وباتت السنابل الذهبية تتدلى على سوقها النحيلة. كان الجو لا يزال دافئاً خلال النهار، ولكن الليالى لم تكن تخلو من الصقيع. وبدأ الجواد المرقط يتهاى ليوطن جلده الخشن على احتمال الرياح الباردة الوافدة من الشمال الغربى. وجاءت وخزة من كعب الحذاء لتضرب جانبه. وصهل الجواد ليعبر عن استيائه قبل أن ينطلق ليجرى فى اهتزاز. كان الحمل على ظهره خفيفاً واليدان اللتان تمسكان باللجام رقيقتين. وارتفعت يد لتلمس رقبة الجواد فى اطراء، وتبع ذلك جذب للجام. وعاد الجواد الآخذ فى الهرم، الجرى مسروراً. ثم ما لبث أن عاد الى مشيته المتأقلة. وتنهدت الفتاة التى على ظهر الحصان العارى بعمق وتركت اللجام يتدلى أمامها، بينما وضعت راحتها أسفل ظهرها وتدلت ساقاها على جانبي

الحصان، وجلست فى استرخاء على ظهره العريض، وأغمضت عينيها البنيتين الرقيقتين وقد شعرت بالدفع يسرى فى صدرها وساقىها. كان بصرها ينتقل فى سبرة فى ما حولها، مجرد رؤية دون أن ترى شيئاً محدداً. كان قوامها معتدلاً وشعرها بنياً دافئاً مثل عينيها وقد بدا كثيفاً، فى قصة قصيرة تسمح لكثافته وتموجه الطبيعى بأن يشكل وجهها البيضاء. وكانت ملامح هذا الوجه عادية بلا جمال صارخ، وإنما كانت تتمتع بصحة عامة تبعث الرضى.

* * *

كانت جولى انطوانيت سميث فى حداتها تندب قلة حظها من الجمال الساحر، ولكن أباه كان يضمها بين ذراعيه فى نوع من العناق الذى اعتاده، ويعمد الى اغاظتها بصوته الضاحك قائلاً:

« ان لك عيين جميلتين ترين بهما، ولك أنفا تشمين به، ولك شفيتين سخيتين تشكلان فمك الذى يتكلم ويأكل بطاقم أسنانك الأبيض الناصع. ثم يرفعها الى أعلى فيما رأسها الى اسفل، وينعم النظر فى وجهها ويقول: « ووفقاً لأخر عملية حسابية قمت بها، فإن لك أربعمائة وسبعاً وثلاثين نمشة ينبغى أن تشكرى الله عليها لأنه نثر هذه الذرات الذهبية فى وجهك. » ولكنها كانت تعبس وتقطب بسبب النمش الذى كان هناك وكأنه ليس هناك. واذا ذاك كان أبوها يداعب ركن فمها ويجعلها تبتسم رغماً عنها ثم يختتم حديثه بلذة النصر قائلاً:

« وأعطاك كذلك بعض الخطوط الغائرة الجميلة على ذقنك. »

وكانت جولى تفهم أن أباهما يتحيز اليها، ولكنها كانت تحس بارتياح كبير بعد تلك المداعبات. وعندما كبرت أدركت أنه كان يحاول أن يجعلها تشعر بالرضى، وقد كفت منذ زمان طويل عن أن تلعن حظها من ذلك النمش وتلك الخطوط الغائرة فى ذقنها. كما تعلمت أن تقبل المداعبات البريئة التى تتعرض لها بسبب ذلك. ورغم أن جولى قلما كانت تحظى باهتمام من الجنس الآخر، فإن الرجال الذين كانوا يألفون صحبتها كانوا يجدون فيها فتاة دائمة الابتسام تحسن الاصغاء والحديث، وكانت من النوع الذى يحسن الى الجلوس الى أمه، بينما تحرص صديقاتها على ارتياد الحفلات.

كانت جولى قد عادت الى بيتها بعدما أمضت أكثر من ثلاث سنوات درست خلالها البرنامج المقرر لأربع سنوات كاملة وأتمت تعليمها وحصلت على الدرجة الجامعية. ولكن ماذا بعد؟ كانت تحس بشيء من عدم الارتياح وكان القلق يجيش فى نفسها. لقد عادت الى مسقط رأسها وبدأ لها أن كل شيء قد تغير، بينما كان كل شيء على ما هو عليه: مسقط الرأس، ثلاثمائة وستون فدانا من الأراضى الزراعية على مسافة ستين ميلا من يانكتون فى ولاية داكوتا الجنوبية حيث ظل أبواها طوال واحد وعشرين عاما من حياتهما يفلحان تلك الأرض. وكانت حياة طيبة لكنها لم تكن تخلو من المصاعب أحيانا بسبب الطقس وأثره على المحاصيل. ولكن.. تلك كانت حياة أبويها وليست حياتها هي.

* * *

وتوقف الجواد المرقط لياكل بصوت طاحن من كتلة كثيفة من العشب ولكن جولى استحثته على السير، وقالت:
« لو أنك أكلت أكثر من ذلك ياكشاف لانفجرت معدتك.. »
واستجاب الحصان مطيعا، وواصل السير متاثقا. وتنهدت جولى وخاطبته:
« يالك من عجوز مسكين. لقد تغيرت أنت أيضا مثلى. صدق من قال: انك لن تستطيع العودة ثانية. »

* * *

كان والدا جولى قد عاشا بمفردهما خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ولم يعودا قادرين على رعاية أمور أبنتهما. فهما لا يستطيعان أن يعترفا بأنها قد أصبحت الآن راشدة. لقد تزوجت أختها التى تكبرها بعام واحد وورزت طفلين وعاشت حياة تختلف تماما عن حياة جولى. وأدركت هذه أن كل شيء قد تغير، حتى جون تالبوت ذاته. رأت جولى سيارة جون البك أب تنتظر عند منعطف على جانب الطريق الزراعى، وكان بقامته الطويلة التى لفحتها الشمس يقف على حافة حقل القمح وعضلات ذراعيه تلمع مع أشعة

الضحى، ورفع أحد ذراعيه محييا بينما ظهرت بين أسنانه واحدة من سوق القمح، ووجدته يخطو خطى واسعة الى حافة الحقل، واقتربت منه على ظهر حصانها وامتدت يدها الغليظتان تحيطان بها وحملها الى لأرض وخفض رأسه تجاهها يلتبس عناقها. واستجابت جولى على فطرتها وقد أحست به يقترب منها، وارتاحت الى بريق العاطفة البادى فى عينيه السمرابين الذهبيتين والى ابتسامته وهو يقول:

« هيه.. لقد مضى وقت طويل منذ خرجت آخر مرة الى المزرعة. »
ووجدت جولى نفسها تلتصق بكتفه. وامتدت ذراعه القوية تشدها اليه وجعلت ذراعها تلتف حول وسطه بينما أخذ الحصان يرعى وقد أغضى عنهما وهما يسيران فى بطء تجاه حقل القطن. واندمجت جولى فى الحديث الذى يدور عادة بين سكان المنطقة: « ان أبى يقول ان موعد حصاد قمحك قد حان » ونزع جون واحدة من سوق القمح قبل أن يجلس تحت شجرة ظليلة وأخرج الحبات الذهبية من السنبلة وألقى باثنتين فى فمه، وقال: « مازالت فيه نسبة كبيرة من الرطوبة. وبعد يومين مشمسين يكون جاهزا للحصاد. »
ودفع قبعته الى الوراء وأضاف: « سوف يكون فصل حصاد طيبا. »
وعلقت جولى قائلة: « ان أبى يشكو الآما فى كتفه ولا بد أن المطر سيسقط قبل مساء الغد. »

وابتسم جون وضمها بين ذراعيه وقال:
« بلغيه نيابة عني أن ينتظر يومين آخرين. »
وهم بعناقها فأدارت رأسها. ولمست شفتاه وجنتيها لكنها اقلت منه وسألها فى هدوء: « ماذا بك يا جو؟ »
تنهدت وأجابت: « لأدرى. » وأدارت بصرها الى الوراء لتلقى عليه نظرة استطاع معها أن يلمح آثار الحزن. وواصل الحديث قائلا: « لقد مضى أسبوع منذ قدومك. ألم تتلق أى رد على طلبات العمل التى تقدمت بها؟ »
« لم أتقدم بأى طلب للعمل. »

وارتفع حاجباه بعض الشيء. وتنشقت أنفاسها وهى تحول عينيها عن وجهه. ولكنه كان يعرف الكثير عما تفكر فيه وقالت: « لقد حصلت على الدبلوم بالفعل، ولكننى لأعرف ماذا أفعل بها؟ »
عندئذ قال جون:

« يمكن متخرجات أقسام الاقتصاد المنزلى أن يصبحن زوجات ممتازات! »
ورغم أن تعليقه كان يعنى لها شيئا من المضايقة فقد عرفت أن العبارة
كانت نوعا من جنس النبض لعله يعرف رأيها. ولكنها لم تكن تستطيع أن
تخبره صراحة أنها لا تحبه، أو على الأقل لم تكن تحبه بالطريقة التى تريد أن
تحب بها الرجل الذى سيصبح زوجها لها. كان جون تالبوت حلم أية فتاة. فهو
لم يكن جميل الطلعة فحسب بل كان صلبا يمكن الاعتماد عليه. وكانت
أى نظرة منها الى ملامحه الملوحة بأشعة الشمس تجعلها تعجب من نفسها -
كيف لا تفرح على أن تفوز بالرجل الذى ظل ينتظرها خمس سنوات. لم
تكن تنكر أن جون له سحر يجذبها اليه، ومع ذلك لم تدق الأجراس ولم
تسرع ضربات قلبها عندما أمسك بيديها وكانت ترى أنه ليس عدلا أن تتزوج
منه وهى تعرف حقيقة شعورها نحوه.

وجاء صوته الخشن الهادىء يسألها: « هل فكرت مرة لماذا لم أقدم اليك
خاتم الخطوبة فيما كنت طالبة فى الكلية؟ » .

وأومات برأسها وهى تشعر بالذنب الى درجة لم تستطع معها أن تجيب
صراحة. وتابع قوله: « كنت أعرف أنك تستلطفيننى بل ربما أحببتنى، ولكنك
لم تقمى فى حبنى حقيقة. » .

وظهرت على وجه جولى علامات الألم، واضطر جون أن يمد يده ليرفع
ذقنها الذى كاد يغوص فى صدرها وقال:

« كنت فى الثامنة عشرة من عمرك وكنت فى الرابعة والعشرين وقررت أن
من الحكمة أن أنتظرك حتى تكملى دراستك. » .

وهمست جولى: « أحس كما لو كنت أدنى مخلوق على الأرض يا جون.
أعترف أنتى لم أقع فى حبك. أحس باهتمام نحوك لم اشعر به تجاه شخص
آخر من قبل. أحبك ولكن فى معنى آخر. » .

وأحست بأصابعه تنشب فى كتفيها تنفيسا عن الألم العميق الذى أبى
وجهه أن يوح به، وابتعد عنها وظل يستند الى جذع الشجرة. وقال:

« الطريقة التى تحبيننى بها لن تشفى غليل أى منا لزمان طويل. » .

كانت ابتسامته تعكس الأسى، وبدت المرارة واضحة على وجهه وأكمل:

« وماذا تفعلين؟ هل تقيمين هنا؟ » .

وهزت رأسها هزة لم يكدها يلحظها، وأجابت:

« لأعتقد ذلك. لقد عدت الى المزرعة لأجمع شتات أفكارى بعد ثلاث سنوات عانيت فيها الانتظام فى الدراسة والواجبات المنزلية وغيرها. وأحس كأن شخصا ألقى بى على الشاطئ. لقد ظننت أن العودة تعطىنى فرصة للبدء من جديد ولكننى الآن أكثر اضطرابا. ولاأريد أن أقبل أى عرض للعمل ولكننى لأريد كذلك أن أرهق أبوى بالانفاق على. لقد كلفتهما الكثير. »
« كل شىء سيكون خيرا باذن الله. »

« أمل ذلك..لكلينا يا جون! »
وكان يحدث فى الارض المزروعة دون أن يبصر شيئا محددا، ثم تحول الى جولى وقال: « هل أطعم فى أن تدوم صداقتنا؟ » وامتدت يده تبحث بشعرها وتذكرت سنوات صباها، وقالت: « بالطبع. »

وابتسم وهو ينهض برشاقة على قدميه، ونهضت هى الأخرى ووقفت صامته الى جانبه. واستأنف الحديث: « دعى عنك هذه الكآبة يا حبيبتى. لا تنظنى أننى فوجئت. أعتقد أننى كنت سأدهش حقا لو انك تحبيننى بالفعل. »
وتعانق الاثنان قيما كانت عيناها مخضلتين بالدموع. وقالت:
« الخالة بريجيت ستقطع رأسى لأننى أفرط فيك. »

وضحك جون وقال: « لا تقولى أن خالتك المشبوبة العاطفة هنا؟! »
« انها كالعذراء داخل الشرنقة. كيف تجرؤ أن تسميها مشبوبة العاطفة؟ ان أمى تقول انها لم تذق طعم القبله فى حياتها. »
« انها فى رأى المرأة التى تعرف معنى الحب. »

كانت تلك أجابة حيرت جولى. وتركها جون لحيرتها وقال:
« ان العم راى يبحث عنى الآن ولا بد أن أنطلق. »
لم تكن جولى قد أدركت أنه اعترم الرحيل حتى ابتعد عنها بضع خطوات فصاحت تناديه: « جون..اننى..اننى أسفة. »

كان جون قد أحس بكتفيه يتصلبان بعض الشىء قبل أن يلتفت اليها. ولوح بيديه، ومع ذلك سرعان ما ابتعد عنها تجاه سيارته. ووقفت جولى ترقبه قبل أن تعود الى جوادها السمين الذى كان لا يزال يملأ بطنه بالكلا.

انغلق الباب الداخلي في المنزل المكون من طابقين وقد أحدث بعض الضجيج
بينما كانت جولي تجتازه الى الداخل . ولم تكن تحس بأنها أحسن أو أسوأ
حالا مما كانت في الصباح . كانت قد اتخذت قرارا حاسما فيما يخص المكان
الذي يمكن أن تعمل فيه . اذ قررت ألا يكون ذلك بأي حال في مكان قريب
من مسقط رأسها حتى لا يتيح ذلك فرصة أمام جون لمعاودة الضغط عليها
للزواج منه . وجاء صوت مهيب من شرفة في الداخل :

« مرحبا .. من دخل ! »

« أنا يا خاله بريجيت »

قالت جولي ذلك وهي تدير رأسها قرب الباب ولوحت بيدها قائلة :

« أين أمي ؟ »

« إنها في المدينة تشتري بعض البقالة »

وهمت جولي بالتوجه الى حجرتها ولكن الخالة أشارت اليها :

« تعالي واجلسي معي »

وكان شعر الخالة بريجيت بلونه الرمادي قد التف في كعكة صارمة وكانت
جولي تنظر الى خالتها التي تكبر أمها بإثنى عشر عاما على انها امرأة عملية
وحازمة . ولكن تعليق جون جعل جولي تتعجب كثيرا وتفكر في مدى صدق
الصورة التي تراها بها . فالملامح التي تبدو عليها الآن ربما كانت في يوم من
الايام جذابة حقا . وسألتها الخالة :

« ماذا فعلت منذ عودتك من المدرسة ؟ »

كانت خالتها قد امضت الثلاثين عاما الاخيرة في مهنة التعليم وكانت
أسئلتها تصل الى جولي وكأنها أوامر . واستغرقت الفتاة في شيء من التفكير
ثم أجابت :

« كنت أستريح من عناء الامتحانات النهائية كما كنت احاول أن أرسم

صورة لما عساي أن أفعله في المستقبل »

« انك تتكلمين وكأنك تتحدثين عن مشكلة خطيرة »

كانت بريجيت كارسون قد لاحظت بالفعل التعبير المضطرب على وجه

جولي ومضت تقول : « كأنه أمر خطير بالفعل »

« نعم »

قالت جولي ذلك وقد حاولت أن تدير وجهها حتى لا تواجه نظرة خالتها

المتفحصة وواصلت الخالة قائلة : « أين كنت هذا الصباح ؟ »
« كنت في الخلاء مع جون »
« انتي على ثقة من أن لديه إجابة عن المأزق الذي تعيشينه »
« نعم .. كان لديه اقتراح »

وبدا صوتها رقيقا وحازما في آن واحد وأكملت :
« انتي لم أقع في حبه حتى الآن يا خالة بريجيت »
« أشعر بالأسف لك ولجون في الوقت ذاته . كان من الممكن أن يكون زوجا وأبا صادقا في حبه لك . هل أنت متأكدة من شعورك نحوه ؟ »
« ما هو الحب ؟ »

طرحت جولي السؤال وهي تستدير من النافذة نحو خالتها وأكملت :
« إن عمري إحدى وعشرون سنة ولا أعرف حتى الآن ما هو الحب »
« ان ذلك يا عزيزتي سؤال أبدي سوف يتردد طالما كان أحياء على الأرض »
وارتفع حاجبا خالتها القاتمان وقالت :
« لقد أدركت انك لم تقعي في حب جون بعد ، والا لما طرحت هذا السؤال »

« هكذا تتخلصين من الإجابة على السؤال .. أرجوك ألا تكرري لي الكلام الذي تقوله أُمي : الحب يعني أشياء كثيرة بالنسبة الى الكثيرين »
« أعتقد أن الحب الذي تتحدثين عنه ، حيث تدق الاجراس شيء نادر لأنه حب بلا أنانية . وقليل من الناس من يستطيع أن يعطي من مشاعره عطاء كاملا حرا . وهناك من يشقون كثيرا في سبيل العثور على ذلك الحب لكنهم لا يجدونه ، ومع ذلك فهناك قلة من المحظوظين يعثرون عليه حقا »
« وهل عثرت عليه خالتي بريجيت ؟ »

« نعم .. ذات مرة . ولكن حادثة السيارة أخذته مني »
وعلت وجهها ابتسامة حزينة وأكملت :
« لقد حطمني تماما ذلك الحب . ان الذي تتحدثين عنه حب نفيس »
« هل تعتقدين إنني سأعثر عليه ؟ »

« ليس بتلك الملامح الكثيبة التي تملو وجهك »
« كانت بريجيت قد اختارت الكلمات التي ساعدت جولي على أن تخرج من شعورها بالكآبة . »

« حسنا إنني لا أتطلع الى الرحيل ، كما لا أريد الإقامة هنا ولا بد من أن أشغل نفسي بشيء »

« الواقع أن من الصعب على الانسان أحيانا أن يتخذ القرار عندما يكون وسط من يعرفهم لأنه يلج في طلب آراءهم رغم أنه يعرف أنها لا تفيد . وفي رأي أن ترحلي لمدة أسبوع أو أسبوعين . أرحلي وحدك الى أي مكان واسترخي واستمتعي بوقتك وسوف تدهشين . كيف تصبح الأمور بعد ذلك في غاية الصفاء »

وهزت جولي كتفيها وقالت : « لأعرف مكانا معينا أذهب اليه »

« لكن هناك بالتأكيد مكانا تريد أن تذهبي اليه »

ولاح في عيني جولي شعاع ضوء للمحظة . فقد تذكرت رغبة ظلت حبيسة نفسها منذ طفولتها ، وقالت :

« ربما ولكن مكان بعيد وليس في وسعي أن أحلم برغبات متطرفة »

« وماذا يضريك لو تحدثت بما في نفسك مينة الى أين تذهبين لو توفرت

لك النقود ؟ »

« سأقول شيئا قد يبدو غريبا على مسمعك ، فقد ظللت أفكر في الذهاب

الى لوزيانا ، حيث كانت جدتي الكبيرة لأمي أو غيرها من أجدادي يعيشون . انني لم أكف عن التفكير فيما اذا كانت كامبرون هول مازالت قائمة هناك ؟ »

« انه لشيء غريب حقا حين نعرف كيف نجح هذا السلف الوحيد لنا في

أن يصبح جزءا من حياتنا الى هذا الحد »

وتفحصت العنان القائمتان جولي بعناية وواصلت تقول :

« لقد سميت بأسمها : جولي أنطوانيت . كانت البنات يحملن أسماء

فرنسية عبر السنين »

« لا يعني ذلك لأن حظ جولي من الجمال والفتنة أكبر بكثير مما كانت

عليه حين سميت »

وقهقهت جولي مليء فمها :

« لا بد أن هناك وسيلة تستطيعين بها أن تقومي بهذه الرحلة »

كان عقل خالتها يعمل بشكل يكاد يكون ملحوظا بينما راحت جولي

ترقبها وهي تزيح الكتاب عن حجرها وتنهض لتقف :

« لا أعرف كيف ؟ »

« إن لدي مبلغا من المال لا بأس به ادخرته ولم أفكر قط لماذا . لم أحضر لك هدية التخرج من الجامعة لأنني أردت أن تختارها بنفسك . وها أنت قد اخترتها بالفعل : رحلة إلى أرض الرافد . إلى لوبيزانا »
وابتسمت خالتها ولهفت جولي وقالت :
« انه مبلغ كبير لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك »
« وكيف تستطيعين أن تمنعيني ؟ »

٢ - ذو الصوت الغريب

كان كل اعتراض تثيره جولي يجد ردا منطقيا مقنعا حتى وجدت نفسها تجلس الى المكتب حيث بدأت خالتها تخطط معها للرحلة . كان من الضروري أن تذهب سيارة جولي الفولكس واجن الصغيرة للفحص الدقيق قبل الرحلة ، بالإضافة الى استكمال بعض الملابس . وكان من الضروري أن تجري بعض الاستفسارات حول مكان المبيت في أقرب مدينة الى المستعمرة . (كامبيرون هول) بالإضافة الى تقدير المبالغ المطلوبة للوقود والطعام والمبيت . وعندما رجعت أمها من المدينة كان قد تم وضع خطة الرحلة كاملة ، وقامت الخالة بربحيت بعرضها عليها كأمر قد تم الإتفاق عليه .

وعندما رأت جولي كافة تكاليف الرحلة صدرت عنها ألم وقالت :
« إن أقل ما أقبله هو أن تأتي معي يا خالتي بربحيت لتستمتعي ببعض الشيء خاصة وأنت التي ستدفعين كل النفقات »
وردت خالتها في حزم وسخرية :

« ليس هذا هدف الرحلة . فالفكرة منها أن تخرجي وحدك وتستمتعي ولن يتحقق ذلك اذا أصررت على أن تصحبي عانسا طوال الرحلة »
ولم تنجح أي محاولة في تغيير القرار الذي اتخذته الخالة . ووجدت جولي نفسها تستغرق في تنفيذ الخطة . ولم يمض أسبوع حتى كانت سيارتها قد أصبحت صالحة للرحلة ، ووصلت إفادة تؤكد وجود أماكن للمبيت وأما الحقائق فقد تم حزمها . وعندما قادت على الطريق العام سيارتها بلونها الذي يشبه لون الثوت البري أحست بأنها أسيرة فيض من المشاعر .

كان هناك شيء واحد يمكن أن يعكر عليها صفو الرحلة ، وهو أنها قد لا تجد أثرا لكامبيرون هول . فقد أوضح الرد الذي جاءها أن أماكن المبيت متوفرة ولكنه ذكر كذلك بأنه ليس لديهم معلومات عن مستعمرة تحمل اسم كامبيرون هول . وأسرعت خالتها توضح أن كامبيرون هول قد بيعت بعد الحرب الأهلية بوقت قصير بسبب الضرائب . وأثارت احتمالا بأن تكون قد

أطلق عليها بعد ذلك اسم آخر . وكانت إعادة تسمية المستعمرة أمرا شائعا في ذلك الوقت .

ورغم أن جولي كانت تريد أن تسرع في القيادة فقد استمتعت بوقتها وقسمت الرحلة الى مراحل أكثر من أربعة أيام بقليل . وكانت تقود على مهل في الطرق الفرعية لتستمتع بالطبيعة الجميلة ، وتجنب الطرق الحديثة التي تتيح لها قيادة أسرع ، ومع ذلك شعرت بنبض في قلبها يدق أكثر من العادة عندما دخلت سيارتها الى حدود ولاية لويزيانا . وأحست كما لو كانت عائدة الى وطنها .

وكانت الساعة السادسة مساء وكانت جولي على مسافة تقل عن المائة ميل من مقصدها . ولولا رغبتها القوية في أن تستمتع برؤية ذلك القسم الأخير من الرحلة خلال ساعات النهار لأكملت السير ، ولكنها قادت السيارة على مضض نحو الطريق المؤدي الى أحد الفنادق الصغيرة بعدما قررت أن تستيقظ في وقت مبكر من اليوم التالي لتستأنف الرحلة ولتستمتع بمنظر الريف الجميل دون خشية منها لدى حلول الظلام . وفي الصباح اخترقت الغابات الوطنية حول الكسندريا وهبطت الطريق الى أويلوساس ولافايت واستدارت بها الطريق الى سانت مارتين في آخر مرحلة من الرحلة .

كانت هناك لافتة على الطريق وسط المدينة تدعوها الى زيارة شجرة بلوط أيفانجيلين التي خلدها أشعار لونغفيلو . ولكن جولي كبحت جماح رغبتها وتغاضت عن الزيارة للمكان المثير . كان أمامها ثلاثة أسابيع للسياحة وكان عليها الآن أن تبحث عن مكان رخيص ومريح تقيم فيه .

ووقفت بسيارتها أمام أحد المطاعم وقررت أن تسأل أحد الأهالي لعله يدلها على مكان تستأجر فيه غرفة تخدم فيها نفسها وتوفر أجر الفندق ونفقاته ؛ وعندما طلبت فنجانا من القهوة سألت الفتاة اذا كانت تستطيع أن تجد لها مثل ذلك المكان ، وقدمت اليها الفتاة إحدى الصحف المحلية لكنها لم تجد بغيتها في القسم المخصص للإعلانات ، وعندما عادت الفتاة ومعها القهوة سألتها : « هل تعرفين وسيلة أخرى أبحث فيها ؟ »

وهزت الفتاة رأسها بالنفي ونظرت نحو الطاولة الكبيرة التي عليها المشروبات وتذكرت فجأة ، كان هناك ثلاثة رجال يجلسون قرب الطاولة وقالت الفتاة : « ربما أجد لك مكانا دعيني أستوضح »

وانتهجت الفتاة نحو الرجال الثلاثة ربت على كتف أحدهم وأخذت تحذنه وهي تشير الى جولي ، ولم تمض ثوان. كان الشاب قد حضر في صحبتها الى حيث تجلس وكانت عيناه الزرقاوان القائمتان تتأملانها بينما كانت الفتاة تقدمه اليها : « هذا غي لوبلان يا أنسة . أعتقد أنه يستطيع مساعدتك »

وانسحبت الفتاة بعدما شكرتها جولي وقال الشاب :
« انني سعيد بمقابلتك يا أنسة »

وأدركت جولي من خلال ابتسامته أنه يريد أن يستأثر باهتمامها وقالت وهي تبسم : « سمث .. جولي سمث »
وشجعها على الحديث فقال : « أخبرني دينسي التي قامت على خدمتك هنا أنك تبحثين عن مسكن تقيمين فيه »

« نعم أبحث عن مكان أستطيع أن أستفيد فيه من تسهيلات المطبخ ولن تطول اقامتي أكثر من أسابيع قليلة. هل تعرف مكانا تتوفر فيه هذه الشروط ؟ »
وأجاب غي لوبلان في هدوء وضحك عندما رأى حاجبيها يرتفعان بشكل ظاهر وقال : « بيتي .. حيث يعيش أبواي أيضا »

وأضاف العبارة الأخيرة في لهجة مؤكدة ثم تابع يقول :
« كانا في الماضي بأويان الغرباء ولو أنهما لم يستقبلا أحدا منذ مدة طويلة »
« هل تظن أنه يمكن اقناعهما بالسماح لي بالإقامة ؟ »
« أعتقد ذلك ولكن دعيني أصطحبك الى هناك لتحدثي بنفسك معهما . ولكن أحب أن أوضح أن في المكان حجرة نوم كبيرة ، أما وجبات الطعام فتتناولونها مع الأسرة »

وأخذ يعاون جولي لتزحزح كرسيها الى الخلف بعيدا عن المنضدة . وعندما تحسنت حقيبتها لتدفع ثمن القهوة تدخل غي ووضع قطعة من النقود على المنضدة وأشار الى القائمة على الخدمة لتأخذ النقود ثمنا للقهوة التي شربتها جولي وقال : « إنه شرف لي »

وعندما تركا المطعم أحست جولي أن من واجبها أن تتفحص الرجل الذي يسير الى جوارها وقدرت أن غي لوبلان كان في بداية العشرينات من عمره كان نحिला ورشيقا وشعره بني داكن أما ملامحه فكانت تتمشى مع نحولة جسمه . كان حاجباه قائمين مقوسين وأنفه ارستقراطيا مستقيما وفمه وسيما. أما عيناه فكانتا تلمعان وتتلألأان وهما تعكسان الضوء . كان يلبس سروالا قائم

اللون وقميصا قطنيا زاهيا ومظهره يعكس إحساسا بالنفحة والارتياح . وأحست جولي أنه يدرك سحرا في نظراته يستغله كلما واثته الفرصة ، وعرفت أنها ينبغي أن تختبر لذلك مستقبلا اذا ما قدر لها أن تقيم معه في بيت واحد . كانت تعليماته محددة وهو يرشدها طوال الطريق الى البيت . وكانت قد قدرت أنه ربما طلب أن يقود السيارة بنفسه ، ولكنه علق بأنه يفضل النظر إليها على النظر الى الطريق الذي يسيران فيه . وقال في النهاية :

« البيت الأبيض على الناحية ، هناك مكان للسيارات خلف المبنى »

وأحست بغربة مخترج الكلمات في صوته ، ثم تكن لهجته كللهجة أهل الجنوب . وابتعت تعليماته وسارت بالسيارة الى وراء المبنى . لم تكن السيارة تقف حتى خرج غي واستدار ليفتح لها الباب وأحست بشيء من القصد الشخصي في مجاملك . ولم تدرك كيف تتصرف إزاءه ، وحاولت أن تمد يدها الى مقبض الباب لكن يده كانت هناك قبلها وامتدت يده الأخرى لتفودها الى البيت . كانت الغرفة التي دخلتها حجرة لمعيشة الأسرة فيها مقاعد بيضاء وأرائك كثيرة ، وكانت هناك شجيرات تعكس الخضرة الطبيعية في المكان ، بعضها يتدلى من السقف العالي في أوان معلقة بينما كان بعضها الآخر من فصائل شجر المطاط ينمو في أحواض خشبية ضخمة وضعت على الأرض المغطاة برقائق الفلين فيما استقر بعضها الأخير على المناضد كنوع من الزينة . ولم يكن غريبا أن تعكس الحجرة الجو الاستوائي بالنسبة الى الحرارة والرطوبة اللتين تميزان مناخ لويزيانا . وبأفوها قائلا :

« اذا أنتظرت هنا فسأحضر والدي »

وأومأت بالموافقة ، وذهب ينقل الخبر ، ووقفت جولي تخدق في الحجرة وتبدي ارتياحها الى ما تراه . كان المبنى قديما ولكنه معني به ويصعب تقديره ، وسمعت طقطقة زوج من الأحذية آتيا من الردهة العريضة فتبأت بعودة لوبلان ومعه آخر .

« ها هو ذا الضيف الذي أخبرتك عنه يا أمي »

وكانت هناك امرأة قصيرة لاتصل قامتها الى خمسة أقدام تقف الى جانب غي ، كانت تمتلك الجسم على نحو جميل وتبدو عليها الأمومة بشكل واضح ، وكنت خصلات من الشعر الرمادي تبدو في الكعكة التي استقرت فوق رأسها . ومدت يدها الصغيرة الى جولي وقد أشرق وجهها بإشمامة :

« قال إيني أنك تريدان مكانا للإقامة يا أنسة سمث »
وأومأت جولي وقد شدعا الود البادي على وجه المرأة الأكبر سنا .
« نعم »

ووجهت السيدة لوبلان الكلام الى ابنتها مداعبة :

« إنها أكثر سحرا مما ذكرت لي ، لذلك تحرم على أن تقيم معنا ! ؟ »

ولم تستطع جولي أن تمنع إحساسا بالخجل غمر وجهها ، ولم تكن تريد أن تظن المرأة أنها تبدي أي نوع من الاهتمام نحو ابنتها ، وانطلقت من الأم ضحكة وابتسمت باعتذار ثم قالت :

« إنه مجرد مزاح ، إن إيني يعتقد أن له اغراء لانقاومه النساء ، غذي حفرك من نزواته الغرامية وتجاهلي ثلثي كلامه المسمول »
وتنفست جولي الصعداء وقالت :

« لديك حجرة تؤجرينها ؟ »

وترددت ، فقد تذكرت أنها لم تسأل عن الإيجار ، وأحست بالحرج فقد كانت تعامل كضيف ومع ذلك الرقم معقولا في حدود طاقتها ، لقد وجدت مكانا للإقامة في مكان طيب ومع أسرة ودودة .
وتدخل غي مستائلا :

« فولي لي يا أنسة سمث ، لماذا أخذت سانت مارتينيل مكانا تعضين فيه أجازتك ؟ لماذا لم تختاري نيواورليانز وهي أكثر نالقا ؟
وأبنت السيدة لوبلان ابنتها بقولها : « غي ! إن لدينا الكثير يعجب الزوار ، فهناك متحف المنزل الأكادي وسوق الحرفيين ومتحف التراث الأكادي في لوروفيل ، والمناظر الفخمة في نيوايبيرا ، ثم ما رأيك في جزيرة أفري ؟ ومدينة الطيور فيها والحدائق البرية ؟ »

ووجهت الكلام الى جولي : « لانصني اليه ، هنالك الكثير الذي سيعجبك . واذا أردت أن تزوري نيواورليانز فهي رحلة قصيرة من هنا »

وأظهرت جولي موافقتها وترددت في التصريح عن غرضها الاساسي ثم قالت : « هناك سبب آخر جعلني أحضر الى هنا . فأحد أسلافي عاش في المستعمرة هنا وسعيت بالفعل بإسمه جولي أنطوانيت سمث وهي كامبيرون هول ، وربما سمعتم بها ؟ »

وجبت أنفاسها بينما صعدت الاثنان برهة قبل أن يجيبا ، هر غي كشفه ثم

هز رأسه بالنفي وابتم ابتسامة طفيفة ولكن أمه لم تستلم بالسرعة ذاتها
وسألتها جولي : « هل تعرفين أين موقعها من هنا ؟ كل ما أعرفه أنها تبعد
عشرة أو خمسة عشر ميلا من سانت مارتنفيل »

وعلقت المرأة في صوت ينم عن الحزن :

« ليس هذا كثيرا . ولكن الزمن لم يكن رحيمًا مع الكثيرين من المنازل
القديمة ، حتى إن ما لم يأت عليه النمل الأبيض أو النار أو القدم ، سقط أمام
الأعاصير أو زحفت اليه يد التقدم »

وتنفست جولي في عمق وقالت :

« ألا تظنين أن هناك أملا في أن أجد تلك المستعمرة ؟ »

وكان مظهرها يوحي بأنها لن تستسلم دون أن تبذل المحاولة وقال غي :

« هناك بعض الأماكن القليلة المهجورة تنتشر في الريف »

وبدأت السيدة لوبلان تسأل من جديد : « ما الاسم مرة ثانية ؟ »

« كامبيرون هول »

والتفتت إلى ابنها تسأله : « هل تعتقد أنه قصر إيثان القديم ؟ »

وهزت رأسها ثم قالت : « لكن لا ، كان هذا يحمل اسم المبدع لقد
خلطت بين المستعمرة وبينه ، ومع ذلك فإن غي مطلع على هذه المسائل .
سوف نسأله لعله يعرف المكان الذي تبحثين عنه . والآن لتسريحني في بيتنا ،
هيا يا غي أحضر حفائبا بينما أقوم بإرشادها إلى حجرتها ، هل تأذنين بأن
أنادي بك جولي ؟ »

وأعطت جولي مفاتيح السيارة إلى غي وصممت على أن يناديها بسم
جولي . وبدأت تتبع السيدة لوبلان عبر الردهة العريضة إلى الدرج المؤدي إلى
الطابق العلوي . وهنا لاح لها السر وراء اللهجة الغربية في أسلوب لوبلان في
الحديث ، كانت اللهجة فرنسية واستفصرت جولي وهي تقبض بيدها على
الدرابزين الخشبي : « هل عشت وأسرثك هنا منذ زمن طويل ؟ »

وأجابت السيدة لوبلان بسرعة : « في سانت مارتنفيل ، كل حياتنا أنا
وزوجي إميل ، لقد اشترينا هذا المنزل بعدما تزوجنا بسنوات قليلة ، كان زوجي
بارعا في مهاراته اليدوية ، ورغم أن المنزل كان في حالة سيئة فقد عمل على
اصلاحه حتى صار على الحال التي تراه فيها »

وأومأت جولي وقالت :

« إنه جميل للغاية . هل جاءت أسرثكم من فرنسا أصلا ؟ »
واستدارت السيدة لوبلان لتجيب عن السؤال بأسلوب مهذب في شيء من
الثقة : « انك لا تعرفين تاريخ لويزيانا »

واحمر وجه جولي خجلا وهي تجيب :

« أعرف فقط ما يعرفه معظم الناس والقليل مما تحويه كتب التاريخ »
وأحست أنه قد فاتها القيام بشيء من الدراسة قبل أن تقوم بالرحلة إلى
ذلك المكان .

« إذن فأنت لم تسمعي قصة الشعب الاكادي ؟ »

وهزت جولي رأسها وقالت أنها لم تسمع تلك القصة . وواصلت السيدة
لوبلان : « لكنك سمعت بقصة الكاجون ؟ »

وابتمت السيدة لوبلان عندما أومأت جولي بالموافقة ، ومضت تقول :
« كان الاكاديون مهاجرين من فرنسا إلى كندا حيث أقاموا في نوا
سكوتشيا . وعندما طالبت انكلترا بمقاطعة كندا كانت تخشى المستعمرة
الفرنسية الكبيرة ، ولذلك خيرتهم بين العودة إلى فرنسا والإقامة في
المستعمرات الأمريكية . واختار أكثر من نصفهم المستعمرات حيث انتشروا
فيها وتشتت شمل كثير من الأسر والمحبين وظل بعضهم يبحث لسنين قبل أن
يجدوا أحبابهم . وبعد ذلك بنحو عشر سنوات هاجر أولئك الاكاديون إلى
لويزيانا . وكان أصحاب المستعمرات الكبيرة قد أمتلكوا على الأراضي الخصبة
على ضفاف المسيسيبي ، ولذلك استقر الاكاديون على طول الرافد ، وبعدما
اشترت الولايات المتحدة مقاطعة لويزيانا من فرنسا وفد الأمريكيون إلى الأراضي
الجديدة وقابلوا تلك الشعوب الاكادية . ولكنهم نطقوا اسم الاكاديين بطريقة
محرقة كاجون . وهكذا تربع أن أكاديين وكاجون هما لفظة واحدة وترجع
سلاة أسرني إلى أولئك المستعمرين الأكاديين ، فتحن أمريكيون من أصل
فرنسي كندي »

وطفقت السيدة لوبلان كلامها وقالت في اعتذار :

« لم أكن أقصد أن ألقى درسا في التاريخ » ، ولأريد أن أصدع رأسك قبل
أن تنعمي بشيء من الراحة في حجرتك ، تفضلي واتبعيني »

وابتمت جولي وقالت :

« تؤكد لك أنني لم أصدع على الإطلاق بل كانت في ذلك فرصة كبيرة »

للتعلم . إن ما سمعته منك الآن يقنعني بأنني سأجد كثيرا من الاستمتاع »
« أمل ذلك »

وسارت المرأة أمامها عبر الردهة تتساوى في سمعتها بالردهة السفلى وقامت :
« يقع الحمام عند نهاية الردهة أما حجرتك فهي هنا »
وفتحت أحد الأبواب وعطت الى الخلف لتسمح لجولي بالدخول ، وقالت
« هل تعجبك ؟ »

« إنها فسيحة للغاية »

ووجدت جولي نفسها في حجرة فسيحة ذات سقف مرتفع ولها نافذتان ضخمتان تمتدان من الأرض الى السقف وفي أحد الأركان كان مكتب صغير وكُرسي بالإضافة الى مقعد وثير له مساند مريحة ومصباح أرضي وسرير لفرد واحد ، بالإضافة الى ترسيحة من خشب الاسفندان ، وكانت هناك سجادات صغيرة ذات لون محاوي فاتح تنتشر على الأرض الخشبية المصقولة اللامعة تبرز ألوان الباستيل التي صنع منها فراش السرير ومساند المقعد . وكان الانطباع العام الذي يوحى به المكان هو السعة والهدوء والراحة . وأخذت السيدة لوبلان توضح :

« كانت هذه حجرة ابنتي الكبرى قبل الزواج . انها فسيحة ما يسمح لك بالحرية الشخصية دون أن تشغري بالضيق »
وشعرت جولي بارتياح أكبر عندما دلتها السيدة لوبلان على الباب المستتر الذي يؤدي الى المرحاض الخاص بها . وسألتها :
« كم طفلا رزقت ؟ »

« خمسة . واثنتان من بناتي قد تزوجتا . أما كلودين فتعيش معنا بعضا من السنة ، وابنتي الصغرى ميشيل تعمل مدرسة هنا . وأخيرا الولد المدلل غي »
وأطل غي برأسه من الباب ضاحكا :

« الصغير المدلل ، هل لي أن أدخل لا أريد أن أقطع الحديث اذا كنت تتوهم أن نستحيين امام الانسة جولي سمث »

وغمرت السيدة لوبلان بعينيها وهي تقول لجولي :

« ها هو ذا يعترف بأنه مدلل »

وأشارت يدها الجميلة الى أنها كي يدخل وهي تقول :

« أدخل بالحقالب يا غي إنني أعرف أن هناك بعض المهام التي يجب أن

تنجزها حتى نتجد ضيفتنا الجديدة فرصة لتستريح »

ووضع غي الحقالب بالقرب من الفراش وقد اشتقرت عيناها القائمتان على جولي الى درجة جعلتها تعتقد أنه كان يريد أن يجعل قلبها يدق له . وحاول أن يلفت النظر الى كونه سوف ينصرف ، وتنهيد طويلا وهو يحييها زبعد بأنه يتطلع الى رؤيتها فيما بعد .

وعندما ترك الحجرة التفتت السيدة لوبلان نحوه وضحكت وهي تقول :

« إنني العاشق .. سأتركك الآن لتفرغي حقالبك وستناول وجبة باردة في الأولى بعد الظهر . وحجرة الطعام هي الثانية الى اليمين بعد السلم . »

٣ - شجرة الذكريات

تحدثت جولي في لهجة امترج فيها السؤال والاستفسار فقالت :

« ألا تعمل في أي مكان يا غي ؟ »

ورد في سخرية وهو يدرس يدها بحزم تحت ذراعه وهما يهبطان المعر الجانبي

« أأكون جريئة كبيرة اذا كنت لا أعمل ؟ »

« إنه يكون إهدارا »

« وهل يخيب أملك اذا لم تكن لي مهنة معينة ؟ »

« ولماذا يخيب أمني بسبب ذلك ؟ »

« لأنني أعرف ما ذكرته أنك سائلة أسرة مكافحة ، ولذلك فأني رجل

يتكاسل يكون في رأيك سيء السمعة وأنا أريد ألا نظنني بي سوءا . وأعترف

أنني أعمل محاسبا رغم أن عملي لا يزال محدودا »

كانت دهشة جولي تنعكس على وجهها ولم يكن يوسعها أن تخفيها ولم

تكن تعتقد أن غي لوبلان يرقه ودمائه يمكن أن يشغل وظيفة في المحاسبة ولو

أخذ برأيها لأختارت له وظيفة في المجال العام .

« إن الشكوك التي ترسم على وجهك تخرج كبريائي ، انني أعمل لنفسي

وليس هناك من يسألني عن عملي سوى نفسي ، وأحصل على دخل وغير

مقابل وقت قصير أخصصه للعمل . وهناك أوقات أجد فيها نفسي مثقلا

بالعمل وأوقات أكثر لا يكون لدي فيها إلا القليل مما يشغلني . وفي الحالة

الأخيرة أجد الفرصة لاصطحاب الصغيرات الجميلات عبر المدينة لمشاهدة

المعالم الهامة . أليس ذلك رائعا في نظرك ؟ »

وابتسمت جولي ابتسامة ذكية أبرزت خطين شديدي الغور في وجنتيها

وهي تقول :

« أعتقد أنك تريد أن تظهر في مظهر الخبث مع أنك لست كذلك تماما »

« إن النساء يحبين الخباء الذين لهم سحر الثمرة المحرمة . بالإضافة إلى أن

النساء يولدن ليؤمن بالإصلاح ويجدن للذفا في أن يصنعن مني رجلا شريفا .

أما اذا حدثت عن الصواب فلا حيلة لي في ذلك لأنها طبيعة في »

وعلمت جولي : « والأمان بالطبع في أن تكون حولك منهن الكثيرات »

وتعمد أن يسير في خطي أبطأ وقال : « أعترف لك أن ظهري قد انحنى من

كثرتهم وتستطيعين أن تكوني منقذتي » .

وأطلقت جولي ضحكة نمت عن عدم التصديق وقالت : « أنا ؟ لماذا ؟ »

« لأنك تستطيعين أن تجعلي الرجل يتطلع إلى التغيير »

قال ذلك وقد بدا في نظره شيء يدل على الجدية رغم الابتسامة الواضحة

وابتسمت جولي وقالت : « بعد واحد وعشرين عاما واطببت فيها على النظر

إلى المرأة أعرف تماما أن نصيبي من الجمال لا يمكن أن يثير اهتمام أي رجل

، فوفر على نفسك الإطراء لأنه لن يجد في نفسي مكانا يا غي »

وتحدثت غي في إصرار : « إنني أقول الحقيقة . لو أنك كنت في قاعة مع

أحمل نساء العالم سيظل وجهك يلح على ذاكرة أي رجل سوف يعاوده

خياله الهاديء المثير . وأعترف أن في تعبيري بعض التناقض ولكن هذا هو

السيبل الوحيد لوصف ذلك المزيج من النمش الباهت مع الخطوط التي تظهر

في الوجه ومع العينين البينيين الرقيقتين ، إنك تجعلين أي رجل يستغرق في

التفكير عندما ينظر إليك »

وأرمأت جولي برأسها قائلة :

« انك تتحدث عن فتاة تأخذها إلى بيتك لتقدمها إلى أملك »

كانت قد أحست بصدق كلماته ولكنها شأن كل النساء كانت تمنى أن

تكون من النوع الذي يخلب لب الرجال ويدير رأسه ليضعه يفكر في أي شيء

دون أن يكون للزواج دخل في ذلك . وصحح لها غي في هدوء قائلا :

« بل أقول الفتاة التي يزهو بها كل الزهو وهو يصحبها إلى أمه »

« أعتقد أنك تعاني عدم وجود منافس »

كان الحديث قد تركز حول المسائل الشخصية بطريقة لم تكن جولي تريدها

، وكان من الضروري تغيير الموضوع ، وضحكت جولي ثم تابعت :

« أين نحن الآن من شجرة البلوط ؟ »

« إنها عند الناصية المقبلة »

وسألها : « هل تعرفين قصيدة لونغ فيلو المسماة إيفانجيلين ؟ »

«أعرف مغذاهما فقط ، وأذكر أن ابغانيجيلين افرقت عن خطيها غابرييل
وظلت تبحث حتى وجدته على فراش الموت في المستشفى »
« هل سمعت القصة التي وراء القصيدة ؟ »
وعندما نفت استمر غي يقول :

« كانت إحدى الأسر الأكاديمية قد تبنت فتاة يتيمة تدعى اميلين لايس
وقامت بتربيتها في منزل الأسرة في نوفاسكوتيا . وعندما بلغت الفتاة السادسة
عشرة كانت ستزوج لويس أرسينو من القرية ذاتها وذلك في الوقت الذي
كان يقوم الإنكليز بنقل الأسر الأكاديمية خارج كندا . وحاول لويس أن يقاوم
ترحيلها لكنه أصيب وأخرج الإنكليز . وهكذا افرق عن اميلين التي تم
ترحيلها على سفينة أخرى فاستقر بها المقام . وبالإسرة التي كانت تبنيها ،
في ولاية ماريلاند .

ولم تكن تعرف مصير لويس وبعد بضع سنين سمعوا عن استقرار بعض
الأكاديميين في لويزيانا ، واصطحبت اميلين اسرتها الى هنا ، وعندما نزلت من
القارب فوجت بالرجل الذي عانت بسببه طوال تلك السنين تحت شجرة
بلوط ضخمة ، ومع ذلك لم تتم سعادتها لأن لويس كان قد ارتبط بامرأة
أخرى . ونحضي القصة لنقول أن اميلين ظلت تتحدث عنه حتى وفاتها كما
لو كان قد مات أو أنتقل الى أرض بعيدة . وأبطأ خطواته ثم توقف وأضاف :
« ويقال أن هذه هي الشجرة البلوط التي وجدت اميلين خطيها عندها ثم
فقدته » .

وراحت جولي تخدق في شجرة البلوط الممتدة أمامها بفنخامتها التي جعلت
الحديقة تتضاءل الى جانبها . وكانت مياه نهر صغير هاديء تتلألأ على البعد
. كان المنظر يعبر عن كتابة صامتة في وسط المدينة ، وكانت هذه هي شجرة
بلوط ابغانيجيلين .

قال غي بينما كانت جولي تخدق في الشجرة بحجمها الكبير وأغصانها
الضخمة : « أعتقد أنه من السحرية أن يكون المبنى الذي يضم متحف المنزل
الأكادي هو ذاته الذي عاش فيه لويس زرينو وزوجته الجديدة ، ولدينا مبنى
تذكاري لكل منهما »

ونفت جولي طريقها عبر العشب الأخضر الى المياه البادية لهما وهي تقول
« والنهر الذي في الجانب الآخر من الشجرة ؟ أليس ذاته الذي عبر فيه

قارب اميلين »

« دعيني أصحح ما قلته إن هذا الرافد بل هو على وجه التحديد رافد تيشه »
وأدارت جولي عينيها المعبرتين عن الحيرة نحو الرجل النحيل بجوارها وقالت
« يبدو لي وكأنه نهر صغير . كنت أعتقد دائما أن الرافد مستنقع أو على
الأقل منطقة مستنقعات »

وأخط غي يوضح في هدوء : « إن أحد الفرنسيين الأوائل اطلق عليه اسم
مياه راكدة عندما رآه للمرة الاولى لأنه لا يبدو فيه أثر للتيار . والحقيقة أن المياه
تساب فعلا لكنها قد تغير اتجاهها في وقت آخر لسبب غير واضح »
« إنه يساب في استرخاء على الطريقة الفرنسية . وكلمة تيشه فرنسية ،
ولكن ما معناها ؟ »

« ليس بالضبط . انها تخوير لكلمة هندية تعني الحجة خففها الفرنسيون
لسهولة النطق »

وتنهدت جولي واثفت الى غي قائلة : « أمامي الكثير لأتعلمه »
« حسنا »

والثفت اليه في سرور ودهشة قائلة : « لماذا »

« اذا كان لديك الكثير لتعلمه فيمكننا أن نقنعك بالإقامة فترة أطول .
وهذا سيسعدني كثيرا »

قال ذلك وهو يحاول أن يؤثر فيها باتسامته وفاجأته بسؤالها :

« هل سبق لأي فتاة صارتك بأنك تنمادى في الحديث أكثر من اللازم »
« فقط أولئك اللاتي لم يكن هدفا لإهتمامي »

وبدا وقد جانبته التوفيق في الإجابة هذه المرة . وفهقهت جولي قائلة :
« يا له من غرور ! »

ونوقفت إحدى السيارات قرب حاجز المنتزة الصغير وراحت تطلق نغمة
حتى جذبت اهتمام كل من غي وجولي . وأخذت الفتاة ذات الشعر القاتم
الجالسة الى عجلة القيادة تلوح لهما .

وقال غي : « والان ، هل تصديق مدى شعيتي ؟ »

وكان كنفاء قد ارتفعاً في زهو وقد استسلم سائرا للأقدار . وصاحت الفتاة
لتي تقود السيارة : « هل تريدان أن أوصلكما الى البيت ؟ »

والثفت غي الى جولي قائلاً : « انها مسافة طويلة هل تفضلين الركوب ؟ »

وعلفت جولي في لهجة مداعبة: « لا أريد أن أفسد في كرمشة ثيابك، كما لا أريد أن أكون مثار حقد من جانب فتاتك »
وأجاب بالقدر ذاته من الفكاهة: « أعتقد أنني أستطيع أن أتعامل مع امرأتين في وقت واحد. ولقد نسبت أن أخيرك أنني كنت ماعرا للغاية في السعادة. »
« حسنا. سوف نركب معها إلى البيت. انني أتوق إلى رؤيتك تمارس غرامياتك. »

وضحكت، وقبلت أن تستند إلى ذراعه وهو يسير بها إلى السيارة. وبينما كان يساعدها على الصعود إلى المقعد الأمامي علفت الفتاة قائلة:
« لقد أخذنا وقتا طويلا قبل أن نحسما رأيكم! ألم تدركا أنه لا يوجد في هذه المنطقة مكان للانتظار؟ »

وأجاب غي: « كنا نناقش ما إذا كنا نفضل العودة سيرا على الأقدام. »
وألقت جولي عليه نظرة، بعد التأنيب الذي لقيه من قائدة السيارة، لعلها تفهمه أن وسامته لم يكن لها تأثير كبير على تلك الفتاة.
« في هذا الجو الحار نريد أن تلهو - لماذا؟ ان المشي في الحر قد يوهن صحتكما بشكل ضار. »

وغيرت الفتاة ذات الشعر الفاتم مقود السرعة وسارت وسط الطريق العام، واختلست نظرة قصيرة إلى جولي تنفحصها فيما كانت الأخيرة تفعل الشيء نفسه، وكانت قائدة السيارة على شيء من الجاذبية، وكان شعرها البني أكثر قتامة من شعر جولي دون أن يكون له سواد شعر غي. كان متوسط الطول وفيه خط فارق على الجانب، وكان ينشئ إلى أعلى ليسهم في اكتساب وجهها التحيل جمالا، وكانت تضع نظارة باطار مذهب أضفى على عينيها القاتمتين ضياء زاه من جمالها.

وابتسمت الفتاة ابتسامة سريعة موجهة إلى جولي وهي تقول:
« إذا كان غي لا يعنيه أن يقدم كالا منا إلى الأخرى فلنفعل ذلك بأنفسنا. انني شقيقتة ميشيل. »

« اسمي جولي سمح وقد استأجرت حجرة من أبويك لأيام قلائل. »
قالت ذلك وقد ألقت نظرة جانبية على ملامح غي المهذبة.
« لقضاء عطلة أم تترجمين الإقامة؟ »
« عطلة. »

« وأخي العزيز جدا كان يصحبك في جولة سياحية. »
ونظرت ميشيل إلى غي نظرة لها مغزاها رد عليها بملامح بريئة، وأضافت في ابتسامة: « كيف تنجح دائما في العثور على الجميلات؟ »
« انني مغناطيس. ومن يجذني كذلك. كيف حال التلاميذ الصغار المزعجين اليوم؟ »

ورفعت ميشيل عينيها تجاه السماء، وهي تقول: « لا تسأل! »
وظهرت على وجهها نظرة ساحرة حزينة وهي تلتفت إلى جولي لتقول:
« أعمل هنا في التعليم. هل تصدقون أن أحدهم قد أخرج الحبراء من الصدوق الرجاسي وصارت تتسلق السريير الخاص بأحدى التلميذات. ولقد سمعت من الصراخ اليوم ما سوف يظل صدها في أذني سنوات. وأظن أن الحبراء الصغيرة قد احست بالسعادة عندما أعيدت إلى عالمها الرجاسي. »
وقال غي لجولي: « لا تصدقي هذه الشكوى. فانها تحب عملها بالقدر الذي يفرم به الأولاد بالبنات. »

وهزت جولي رأسها في أسف، وقالت:

« ان عقلك يتجه دائما إلى موضوع واحد. »

وعلفت ميشيل موافقة بقولها: « هل لاحظت أنت أيضا ذلك؟ »

« لقد جعلني أعتقد أنك واحدة من العديديات المتيمات به. »
واعترض غي قائلا:

« حسنا. أرجو أن تكفأ أنتما الاثنتين عن مهاجمة رجل مسكين أعزل. كيف تحفظ جولي بتقديرها لي إذا ما عاملتني بهذه الطريقة الساخرة؟ »

وهمست ميشيل قائلة: « طبيعة الرجل الهشة! »

وضحكت جولي لذلك، وصاح غي متصنعا الغضب: « ألم تعلمك أنا أن الهمس امر غير لائق؟ أرجو يا جولي أن تتجاهلي ما قالته لك. »

وضحكت شقيقته، وقالت:

« لا بد أن تجد من يحذرها ضد سلوك شباننا في الولايات الجنوبية. »

* * *

ووصلوا إلى بيت لوبلان وعندما أوشك غي أن يستأنف شجاره مع شقيقته

ظهرت الأم عند قوس الباب الخلفى لترحب بهم. كانت تجريرة غير عادة بالنسبة الى جولي وأحست بأنها تألف تماما أولئك الناس الذين لم يسبق لها أن تعرفت عليهم قبل يوم. فتحوا قلوبهم وأذرعهم بالصدقة.

وأخذ غي يسأل : « حسنا . ما رأيك في شقيقتي ؟ »

وكانت ميشيل قد استجابت لأمرها التي طلبت منها أن تحمل أوراقها الى داخل البيت ، وأجابت جولي في ابتسامة : « إنها رائعة »

« هل تصدقين أنها مولعة بمدرس التاريخ القديم وأن سقراط وپوربيدس هما المناهضان لها »

ومثل قبضة موجهة اليه على سبيل المزاح قبل أن يضع حدا للمناقشة بينه وبين شقيقته عندما دخلت الأم حجرة المعيشة . كانت تحمل صينية عليها أربق مليء بعصير الليمون وبعض الأكواب ، ولم يكن الأمر يحتاج الى اقتراح أي منهم بالمشاركة في الشرب المنعش . وقالت السيدة لوبلان :

« لقد تلقيت خطابا من كلودين اليوم وسوف تعود إلينا مع نهاية الأسبوع » وبدأ أن غي لم يسعد بالخبر وقد ظهر ذلك على ملامحه أكثر مما بدا على كلماته وهو يقول : « وهل تطول إقامتها هنا ؟ »

وأجابت الأم : « أعتقد أنها ستقيم معنا حتى موسم الاجازات » وبدأ الصمت يسود المكان . وعلقت جولي قائلة :

« لا بد أنها تعمل في مكان ممتاز يسمح لها بأن تستمتع بكل هذا الوقت » وبدأت السيدة لوبلان توضح فقالت : « ابنتي فنانة وتعرض لوحاتها في نيواورليان خلال الاجازات في فصلي الصيف والشتاء . أما باقي السنة فإنها تمضيها هنا ترسم لوحات الكنتا الجديدة ليكون لديها باستمرار رصيد كاف » ونظرت جولي الى كل من ميشيل وغي وتتوقع منهما أن يشعرا بالزهو الذي تشعر به امهما ، وقالت : « لا بد أنها ناجحة الى حد ما »

وأومأت الأم في سرعة وقالت :

« نعم ، انها كذلك ، وأكاد أقول إن اللوحات التي تزينها هنا من كلودين » وتذكرت جولي على الفور اللوحتين اللتين تزينان جدران حجرنها ، كانتا تمثلان باقات من زهور الربيع بينها توافق وانسجام . ومع ذلك تختلف كل لوحة عن الأخرى في محتوياتها . وقد رسمت الزهور على أرضية لونها أزرق رمادي ، ونسقت الزهور في آنتين صينيتين متماثلتين في الشكل ، بشيع

فيهما اللون الأزرق الفاتح . وقدرت جولي أنه اذا كانت كلودين هي التي رسمت تلك اللوحات فلا بد أنها فنانة ناجحة للغاية . وعندما سألت السيدة لوبلان عمن رسم تلك اللوحتين أكدت أنها كلودين . وكانت الأم على استعداد للإستمرار في تمجيد انتاج كلودين لولا دخول زوجها .

كان اميل لوبلان ضئيل البنية ويبدو كشاب نحيل القوام ، وكان شعره فيما مضى قاتما كشعر غي ولكن الشعر الأبيض والرمادي بدأ يزحف على جانبي رأسه وعلى مؤخرة رقبته . وعندما حيا أسرته وطبع قبلة محبة على وجنة زوجته استدار نحو جولي مبتسما ومستغفرا :

« من الآسنة الجميلة التي تشرف حجرتنا يا جوزفين ؟ »

وبدأت السيدة لوبلان على الفور تشرح ظروف اقامة جولي وهي تقدمها اليه وكان ترحيب السيد لوبلان بها كريما كباقي أعضاء الأسرة . بل كان فيه نوع من المداعبة الودودة كترحيب غي بها وقال :

« جولي أنطوانيت . هذان اسمان فرنسيان ربطا باسم آخر شائع الاستعمال مثل سمث »

وبدأت جولي تشرح من جديد أسباب قدومها الى سانت مارتنفيل في محاولة للتعرف على مكان المستعمرة التي عاش فيها أجدادها ، الى جانب رغبتها في القيام بسياحة في المعالم المحلية . وكانت اجابة اميل لوبلان هي الاجابة غير المحددة كما فعلت زوجته وابنه من قبل عندما ذكرت جولي كاميزون هول وإن كان قد أبدى حماسه للمشاهد المتوفرة في المنطقة . وقال « ينبغي هنا أن نضع لك خطة لسياحة المنطقة حتى لا يفوتك شيء خلال إقامتك هنا »

ونظر الى ابنة وابنه ليتحملا هذه المسؤولية ، وأضافت السيدة لوبلان في حزم « لا يزال هناك وقت لذلك فيما بعد يا بابا ، وأعتقد أن جولي تفضل أن تكمل شرايها وتأخذ حماما قبل العشاء ، فهي لم ترخ بعد من رحلتها الطويلة ولم تعود على الرطوبة العالية عندنا ولا ينبغي أن نفرض عليها خططنا بأي حال »

وأومأ الأب يقول : « حقا ، حقا »

والتفت الى جولي معتذرا لكنها أكدت له : « انني غريبة تماما عن هذه المنطقة يا سيد لوبلان ، وأكون شاكرة حقا لو تفضلت بأي اقتراح » .

مع ذلك فإن زوجي على حساب هذه المناقشات ينبغي أن توخّل إلى ما بعد العشاء .

والثفت ذراعه حول زوجته وقال :

« ماذا متقدمين لنا الليلة ؟ هل فكرت في طبق خاص لطيفتنا الجديدة ؟ »
ليس الليلة . دعها تتعود على مناخنا أولاً ثم مطبخنا .

وحاولت جولي أن تعبر عن الاحساس الذي تملكها وهو الشعور بالذنب لأنها أفلقت حياتهم . ولكن اعتذارها لم يكن له مكان . فقد أكدت لها السيدة لوبلان أنها لم تسب لهم أدنى قلق .

ولم تملك جولي إلا أن تستسلم . فقد كانت هي الأخرى تستمتع بدواء كبير في محيط الأسرة .

٤ - عينان في الغابة

كان الصباح قد استسلم إلى شمس الضحى في اليوم التالي قبل أن تطمحش السيدة لوبلان إلى أن جولي قد زودت بما يلزمها من الطعام والشراب والكنيات والتعليمات التي تمكنها من السياحة يوماً كاملاً ، وجلست جولي في أمان خلف عجلة قيادة سيارتها وأخرجتها من المجر . لم تكن جولي تعرف وجهتها رغم الأماكن العديدة التي رشت لها ، وكان الجو ينبغي بطقس يميل إلى الحرارة . لذلك فضلت ألا تتجه نحو زيارة المتاحف . واختارت أن تسلك الطريق الجانبي التي تخطط بسانت مارتيفيل ، وتستكشف الطبيعة من منظور آخر غير القيادة على الطرق العامة . وكانت تعتزم التوقف فيما بعد ، عندما يحل جو المساء اللطيف أمام المنتزة العام الذي يحمل اسم لونغفيلو .

وسلكت طريقاً يتجه من المدينة شرقاً وتركت وراءها سانت مارتيفيل . كان الطريق خالياً وتركت سيارتها تسير بالسرعة التي أرادت بها تطير . عندما يشد عينيها منظر يسير الاهتمام وتسرع لتجعل الرياح المتولدة عن حركة السيارة تداعب وجهها . كانت مزارع قصب السكر تنشر في المكان وبعض جذوعه تعلو قنطيل السيارة ، بينما بعضها الآخر لا يكاد يصل إلى النافذة . وانتشرت على جانبي الطريق منازل لم تكن تختلف في مظهرها عن أمثالها في مسقط رأسها ، مع ذلك كانت من وقت إلى آخر تلمح بيوتا تتكون من طابقين وقد أراجعت إلى الداخل بعيداً عن الطريق تاركاً أمامها مرجاً أنضج يشق طريق يؤدي إلى البيت تحده صفوف من أشجار البلوط . وكانت تخفف السرعة في محاولة للعثور على أية إشارة تدلها على كامبيرون هول ، ولكنها كانت تعصب دائماً بشيء من الاحباط .

واستسلمت لرغبة امتولت عليها تدفعها للقيام بشيء من المخاطرة . وتركت الطريق المرصوف إلى آخر تغلب عليه الأصداف البحرية ، وزادت كثافة مزارع القصب على جانبي السيارة حتى أحست بأن جذوعه البارزة تكاد تبطلها .

وبدت بعض أغصان الأشجار من بعد تمثل مرفأ الأمان بعد مزارع القصب الممتدة . وتوارت جذوع القصب لتفسح مكانها للأشجار البلوط ترتفع في كثابة من مستقرها المائي تغطي أغصانها الطحالب الأسابية . وبدت الزنابق المائية الجميلة تتصارع مع الطحالب لتبرز على سطح أوراقها الخضراء التي تنسلخ للجزر الصغيرة من أعشاب المستنقعات والأوراق ذات الرؤوس النائكة من أشجار النخيل القصيرة بسعفها المروحية الشكل .

وأبطأت السيارة سيرها لتلقي جولي نظرة على الحياة البرية في المستنقع . وسمعت بعض الطيور تصفق بأجنحتها ولكنها لم تر أثرا للحياة . وخاب أملها فقد كانت تحلم برؤية نصاح بري وأقنعت نفسها بأن ذلك مستنقعا صغيرا ، بل مجرد مصفاة لا يمكن أن تأوى تمساحا نظرا إلى قربها من مناطق السكن وعلى بعد أقدام أخرى كان المستنقع قد تحول إلى أرض للمرعى ، وبدت قطعان الحيوانات ترعى العشب الكثيف في منظر لم تألفه جولي . وكانت نظن أن تلك الماشية تكثر في المناطق البرية من الولايات المتحدة ، لاني ولاية لويزيانا واستدار الطريق في منعطف سهل حول المراعي ووجدت جولي إن على الجانب الآخر من الطريق خطا متراجعا من الماء سرعان ما اكتشفت أنه رافد كانت أشعة الشمس تسطع فوق سطحه بشكل جعله يعكس صفاء منظر هاديء . وكانت هناك رافعة تجرف من الشاطئ المقابل حيث كانت أغصان شجرة البلوط تتدلى فوق الماء .

وخطر لجولي أنه مكان رومانطيقي تسعد فيه بتناول طعام الرحلة الذي أعدته السيدة لوبلان . وكان هناك مدخل لبوابة على الجانب الآخر من الطريق يدعوها إلى أن تستفيد منه كموقف للسيارة حتى لاتعيق المرور ، فأحسنت الاستفادة منه . وعبرت الطريق تحمل على إحدى ذراعيها سلة الطعام والسجادة الصغيرة ، وتحمل على الذراع الأخرى الترموس وحقيبة يدها . وقفزت عبر حفرة مليئة بالماء كانت تفصل الطريق عن الرافد دون أن تزل قدمها أو يسقط شيء من يدها .

كانت وطأة حرارة الجو تنتشر عبر المكان ، وكانت أي حركة تبدو بطيئة واهنة تشبه قوائم الرافعة التي كانت ترتفع وتنخفض في ببطء شديد . أما أصوات الطيور فقد أخرجت ، وحتى صوت الماء الخافت وهو يعانق ضفة الرافد لم يكن مسموعا .

وتجمعت حبات العرق على جبهتها لتفترس أطراف شعرها الهشة وترحف إلى شفتها العليا حتى تسربت الملوحة إلى فمها . وانحنت على العشب القصير وفرشت السجادة الصغيرة وأخذت ترتب الأشياء إلى جانبها . كانت السيدة لوبلان قد وضعت في سلة الرحلة فوفة في كيس من البلاستيك استخدمتها جولي في إزالة آثار العرق عن وجهها ، وأحست بالانتعاش عندما بدأت الرطوبة الجديدة تبخر عن بشرتها .

وأحست بفتحة قميصها القصير المبطن بشرط من البلاستيك تضايقها فجذبت الكمين القصيرين إلى أسفل حتى بدا عطر الرقبة مستقبعا من الكشف إلى الكتف . وخفضت رأسها إلى الوراء وعصرت الفوفة فتدحرجت قطرات من الماء فوق كتفها تسيل بعضها إلى صدرها .

وأخذت عينها تتفحص المكان المحيط بها . وعلى أمتار قليلة كانت هناك شجرة بلوط صغيرة تركزت عينها على أغصانها العليا وانتقلت إلى الجرع ثم إلى أسفل الشجرة . وتوقفت يدها فجأة عن الاستمرار في عملية الترتيب التي كانت تقوم بها ، فقد وقعت عينها على رجل كان يسترخي هناك . وسرت الدماء في وجنتيها من وقع المفاجأة . فقد كانت عيناه تتفحصانها في جراءة .

وأسرعت يدها بعيد كمي القميص إلى وضعهما السابق ، وأدرك الرجل أنها لاحظت وجوده فنهض على قدميه وخرج من ظل الشجرة ووقف على بعد خطوات منها ولم تملك إلا أن تراجع إلى الوراء . وتحدث في اغراء قائلا

« إنه ليؤسفني أن تخجني هذين الكتفين الجميلتين »

وتسارعت دقات قلبها وامتدت يدها لتجمعها حاجياتها وتلعثمت قائلة :

« إنني .. إنني أسفة .. لم أكن أعرف أن أحدا هنا .. سوف .. سوف أجد .. مكانا آخر »

« لا حاجة بك إلى ذلك فأنا أرحب بأن تشاركيني الاستمتاع بمنظر ذلك الرافد »

كل شيء في صوته المهذب يجبرها على أن ترفع بصرها نحوه ، ووجدت نفسها تتحدق في عيني لم يسبق لها في حياتها أن رأته مثلها في القناعة ، وكأنها تلمعان في استشارة من وراء ظلال رموش قائمة مجمدة ، وكان حاجباه وشعره بلون أسود أشبه بجناح غراب لامع وقد صبغت الشمس بشرته بلون بني

يشبه خشب الساج . ولم يد في ساقه البارزتين من سرواله القصير أي اختلاف عن لون ذراعيه . كان طويل القامة وجسمه مشوقا يمسك انطباعا عن قوة في ذراعيه دون بروز في العضلات ، فيما كنتاه وسيمان عريضان . ولم يكن هناك أثر للترهل في مظهره وكان فخذاه مستقيمين ، وعندما ابتسم كشف نغره عن أسنان بيضاء كالثلوة . ولاحظت جولي الخطوط الغائرة التي برزت على جانبي فمه . وقال :

« أعد بأنني لن أضايقتك »

واحمرت وجنتاها وقالت وهي تعرف أنها تكذب :

« لم يخطر لي أنك تضايقتني »

« كان ينبغي أن يخطر لك ، فقد أحسست فعلا برغبة في ذلك »

وضاقت عيناه في خيبت وهما تتضحصانها وهي في وضع الركوع . كانت جولي تمنى أن تستشق نفسا عميقا ولكنها كانت تخشى أن يبدو عليها القلق الذي كان يساورها . وحاولت أن تترجع ثقتها بنفسها ووجدت الشجاعة من جديد فقالت : « لا أريد أن أقطع عليك خلوتك »

« على العكس »

قال الرجل ذلك ومشى عائدا إلى مكانه أسفل الشجرة في وضع استرخاء الذي كان عليه ، واستمر يقول :

« إن جلوسك لتناول الطعام لن يؤثر على جلوسك لصيد السمك ويمكنك أن تبقى في المكان ذاته »

وامتد بصرها إلى الصنارة والخيوط المستدين إلى عصا قرب حافة الشاطئ ووجدت نفسها تقول في صراحتها المعتادة :

« ولكن هذا الوقت من النهار ليس مناسباً للصيد ، فالجو حار »

وعلق قائلا : « يبدو أن لك خبرة في الصيد »

وأجابت جولي وهي تبتغي من عزمها على الرحيل السريع :

« بعض الخبرة »

وابتسم في مواجهتها من جديد وقال :

« إن لي نظرية حول الصيد في هذا الوقت من النهار أعتقد أن تعرفينها ؟ »

وقعدت على السجادة الصغيرة وقالت :

« وما هي ؟ »

« أعتقد أن الأسماك الكبيرة الذكية تعرف أن الصيادين لا يخرجون إلى الصيد إلا في أوقات خاصة تتجنبها هذه الأسماك . أما في مثل هذا الوقت الحار فإنها تبحث عن الطعام في مأمن من شباكهم »

« وهل تحققت نظريتك ؟ »

« كلا ، ومع ذلك فهي فرصة لتدريب الديدان التي أستخدمها كطعم »

وقهقهت ساخرة ، ولكن سرعان ما سكنت عندما انحنت قصبة الصيد النخاعة مضاعفة . ووقفت جولي ترقبه وهو يشد القصبة وقد استولى عليها شك حبس أنفاسها . وشد الخيط بقوة وجعله يستقر على الشاطئ . وأحس بشيء على نهاية الخيط فاتجه إليه والنحن ليلتقطه بينما زحفت لثاقي نظرة عن كذب وصاحت :

« يا لها من سمكة كبيرة ! »

« إننا نسميها جراد البحر »

وأخذ يقلم زعانفها ثم وضعها في دلو صغير

« هذه جرادة البحر ؟ »

قالت جولي ذلك وهي تحديق في السمكة وكانت الدهشة تبدو في صوتها لحجم السمكة الكبيرة الشهيرة جراد البحر . وسألها :

« هل سمعت قصة الكاجون وهجرتهم من كندا إلى هنا ؟ »

ونظرت إليه في دهشة وهي تتعجب من صلة ذلك بسمكة جراد البحر وقالت : « نعم »

« وهل سمعت بأسطورة جراد البحر ؟ »

وأجابت جولي « لا »

« عندما اضطرو الأكاديون أو الكاجون إلى ترك كندا كان صديقهم المخلص جراد البحر يعيش في المياه المتجددة حول نوفا سكوتيا . وكره أن يهاجر ولم يكن له مكان على ظهر السفن التي حملتهم بعيدا . وكان عليه أن يسير في أثرهم ، واستمر يسبح المسافة كلها هابطا بمحاذاة ساحل الاطلنطي إلى خليج مكسيكو حتى وصل أخيرا إلى رافد لويزيانا حيث أقام الأكاديون وطنهم الجديد . وكان للمرحلة أثرها فقد أنقص التعب جراد البحر إلى ربع حجمها السابق .. »

وهنا كانت عيناه الزرقاوان القانتان تنظران إليها وقد تقوس أحد حاجبيه

وكأنه يريد أن يتحقق مما إذا كانت تصدق أم لا . وأضاف :

« هكذا تخكي أسطورة جراد البحر »

« حسنا ، سواء كانت هذه الأسطورة حقيقة أم مجرد هراء عاطفي فإنني أحبها »

وتنهدت وقد بدا في صوتها شيء من الرضا ، وعاد يسألها من جديد وقد بدا الخبث في عينيه :

« هل تخجحت القصة التي نحكيها لأطفالنا في أن تزيل قلقك بالحد الذي يفتنك أن تواصل قضاء نزهتك الانفرادية هنا ؟ »

« نعم »

وبدا في صوتها شيء من الاضطراب عندما أسررت عيناء عينيها ، ولكن جولي استطاعت أن تتحرر من تخديق عينيه وقالت :

« إن لدي من الطعام الشيء الكثير ، هل تحب أن تشاركني ؟ »

وعلق قائلا : « كنت أظن أنك لن تفكري أبدا في أن توجهي الى هذه الدعوة »

« لم أكن أريد أن أشتت انتباهك وأنت تحاول أن تثبت صحة نظريتك ، وكنت أكره أن أكون سببا في ضياع السمكة الكبيرة منك »

قالت ذلك مقهقهة وهي تعود الى حيث كانت تستقر سلة طعامها ، ونابت : « بالطبع . لو أن السمك الكبير على ذلك القدر من الذكاء كما

تظن فمن المحتمل أنه سمع نظريتك وبدأ يحتاط ضد حيلتك »

كانت قد أحيت صوته المرح أثناء الضحك وهو ينضم اليها في تناول الطعام ، ومع ذلك كانت هناك أشياء عديدة حول ذلك الشخص الغريب الذي أعجبها الى جانب نظراته الوسيعة المؤثرة ورغم ذلك فإن أسلوبه الذي يتم عن

الثقة الرائدة بالنفس والذي بدا في قدرته على إعادة الطمأنينة الى نفسها ، جعل جولي تعتقد أنها أمام شخص يتفوق عليها في الخبرة . ولم يكن يوسعها

أن تسمح لسحره الاحتيالي أن ينسرب الى عقلها ، ومع ذلك لم تستطع الا أن تستجيب بإتسامة مماثلة عندما جلس على السجادة الصغيرة الى جانبها ،

ووضعت رفاق البطاطس بينهما قبل أن تمتد يدها لتخرج بقية الطعام . كانت هناك شريحتان من اللحم البقري المشوي قدمت اليه احدهما واحتفظت لنفسها بالأخرى ، وقالت : « يمكنك أن تختار من التفاح أو البرتقال ، أو من

كليهما . ويوجد من كل زوجين اثنان هنا .

« هذا كثير . شكرا »

وسادهما صممت وهما يتناولان الطعام . منحهما الفرصة للاشتماع بمذاقه الشهى . ووجدت جولي نفسها تضطر للاعتراف بأنها تستمتع بالوجبة ،

وأحست لأول مرة بحررتها في أن تكون على محبتها وألا تقيم وزنا لمشاعر أى شخص آخر مثل والديها أو جون .

ومدت يدها الى الترمس تتناول كوبا من عصير الليمون . وادرك أنه لا يوجد غير كوب واحد وملأت الكوب وقدمته اليه ، كما اقتسما الطعام . وعندما أعاد

الكوب اليها بعدما شرب نصيبه ، سألته جولي : « هل أنت أكادى ؟ »

« أنا أومن بفلسفتهم فقط . »

« ما هي فلسفتهم ؟ »

« الأفضل أن تعيش حياتك لأن تكتفى بأذك مجرد كائن حي . والأفضل أن تغني لا أن تسب وتلعن . والأفضل أن تعيش للحب لا للحرب . وفي بساطة أكثر فإن الأكادى يحب القهوة الثقيلة والضحك والحديث والغناء والرقص

والأطعمة الدسمة وأكثر من ذلك كله يحب النساء . »

« ولكنك لم تخدشني عن النساء الاكاديات هل يحبين هذه الأشياء أيضا ؟ »

« انهن يضمن الى القائمة الاطفال والثروة وأزواجهن . »

واعترضت قائلة : « أن ذلك ليس عدلا . لقد قلت أن الرجال الأكاديين يحبون النساء ، والأن تقول أن النساء الأكاديات يقتصرن على حب أزواجهن . »

« عليك أن تأخذى في اعتبارك أن الأكاديين لديهم اهتمامات ترجع الى أصلهم الفرنسي فحلمهم يقدرون جمال كل امرأة بصرف النظر عما اذا كانوا

متزوجين أم لا . »

كان بإمكان جولي أن تستتبع أنه يعتمد أن يبدو كما لو كان مثيرا للغضب ومع ذلك أحست بأن كلامها مثير ولو بدرجة طفيفة . وقالت في لهجة تتم

عن الاحتقار : « هم ليظهروا بمظهر العاشقين العظام ؟ »

الضيف المنعم! وتلك الأعين البنية الناعمة تذكره بأثني الظبي التي نخش
أن تدخل مرجا غريبا. كانت عيناه الزرقاوان تنعمان النظر في كل ملمح من
الملامح التي يذكرها. ونابع: « وشفتاك المقوستان في استدارة جميلة رقيقة
تعدان بعذوبة ما بعدها عذوبة. »

كانت عيناه تحدقان فيها بشكل أسر لا يسمح لها بأن تتحول عنه. كانت
البرقالة التي نزعنا قشرتها بين يديه فقطع منها شريحة وضعها بين شفتيهما،
فانفتح فمها يتقبلها بطريقة آلية وقد أحست بأنها قد أكلت الثمرة المحرمة.
وأطلقت من حيث لا تدري ضحكة للتصويه حاولت معها أن تتخلص من
عينيه المحذقتين. وشعرت بالرغبة في البكاء.

« من حسن حظي أن ذلك الشاب الفرنسي ليس موجودا هنا. إذ كنت
سأشعر بالذنب لو أنني رفضت الاطراء الذي يقدمه لي من باب المجاملة. »

« وهل بدا لك ذلك مجاملة؟ »

« دعني أقول لك أن عبارة المنعمه كان فيها شيء من المبالغة الشاعرية.
ولكن الاطراء من أجل الاغراء غالبا ما يكون كذلك. »

« ابتسم قائلا: « انك تتعمدين التقليل من قدر جمالك. »

« أوه! أنني لأتواضع إلى الحد الذي أتجاهل معه أن لي جمالا على طريقتي
الخاصة. ولكنني لست هيلين الجميلة فتاة طروادة. »

« ان مايرده الرجل من المرأة هو الحب وليس الحرب. قد يذبل سحر المرأة اذا
كان على الرجل أن يصارع منافيه باستمرار ليثبت حبه. »

« هل هذا اطراء معكوس نقلل من شأن الجمال وترفع من شأن البساطة؟ »

« لا، كنت أقول فقط أن الجمال الباطني أكثر سحرا من الجمال

الظاهري. »

كانت جولي قد نهضت على قدميها، وبدأت تحمل اللفائف المختلفة على
فراعيها. وكان الرجل يمتدحها لكنه لم ينجح الا في أن يحس بعزيم من
الضيق لنقص جمالها. كانت من قبل على ثقة كبيرة دائما، وقادرة على أن
تحتفظ ببنائها أمام أي رجل. أما هذا الرجل فكانت له جاذبية خاصة ومؤثرة
إلى درجة كبيرة. كان يبدو وسيما حتى تخشيت أن تتورط في أي مداغية معه.
ورأت أنه من الأفضل أن تهرب قبل أن تتورط في شيء تخشى عقابه.

« أرجو ألا تظن أنني أقسم طعامي ثم اهرب ولكن من الأفضل أن أعود

الآن. »

« ابتسمت دون أن تسمح للحرارة في فمها أن تؤثر على كلمات الوداع.
« ولكن وقت ما بعد الظهيرة لا يزال ممتدا. »

كان هو الآخر قد نهض على قدميه، وبدأ يختلس النظر إليها بطريقة
تستحها على البقاء.

« لكن اجازني قصيرة. »

« قالت ذلك والأسف بدا في الشهيدة التي أطلقتها. ومد يده ليأخذ سلة
الطعام من يدها فشعرت بأسف عندما كف عن الالتحاح عليها في البقاء،
فيما كان قد وقف ينتظر منها أن تسلك الطريق إلى سيارتها. »

« وعندما تم وضع كل شيء على مقعد السيارة الخلفي التفتت جولي، قائلة:
« وداعا. »

« وامتد اصبعه إلى وجنتيها وقال: « عليك أن تظلي سيارتك بطريقة تنسجم
مع الشمس على وجهك. عندئذ يكون كلاكما أنني طائر جميل تستعد
للعودة إلى مأواها. »

« سيكون ذلك بدعة! »

« قالت ذلك وهي لا تجرؤ على النظر إلى عينيه. وجلست خلف عجلة
القيادة، وقالت: « شكرا على قبولك مشاركتي إياك مكانك المختار للصيد. »

« شكرا على وجة الظهيرة. »

« حسنا. إلى اللقاء. »

« قالتها بالانكليزية، وبدأت الكلمات مبهجة حتى على أذني جولي. »

« لا تقوليها بالانكليزية، ولكن بالفرنسية.. حتى نلتقي ثانية! »

كانت جولي قد أدارت محرك السيارة وانطلقت بها. وخطر لها أن القرصة
لللقاء ثان أمر بعيد الاحتمال. إذ كيف يتسنى لهما أن يتقابلا من جديد؟ لم
يكن يعرف اسمها أو مكان سكنتها، كما هي لم تكن تعرف شيئا - عنه.
وكان ذلك الخاطر محزنا في حد ذاته.

٥ - رعشة في المعبد

كان غي ووالده يحضران اجتماعا يعقده احد الاندية المحلية، وكانت السيدة لوبلان تزور قرية لها كبيرة في السن. وجلست ميشيل على الأريكة المغطاة بفراش ذي نقوش مربعة، وحولها بعض الكراسيات تقوم بتصحيحها بينما آلة التسجيل تملأ الحجرة بموسيقى مرحة. وجلست جولي تكمل رسالة كانت تكتبها الى خالتها بريجيت ولم تكن تستطيع أن تجعلها مبهجة مثل الرسائل السابقة. كان شبح الوجه القوي بشعره الأسود القاتم وعينه الزرقاوين يطل عليها باستمرار وكانت تحس بالإحباط لأنها لن تراه ثانية.

لقد سبق لها أن احتكت برجال على هذا القدر من الجاذبية وكانت تعجب بنظراتهم حقا. ولم تكن تحس بالكآبة لانقضاءهم ولكن الأمر كان مختلفا مع هذا الرجل. لقد اعترفت جولي لنفسها صراحة أنه سحرها بما يعرفه عن لويزيانا، وبما يتمتع به من مرح وفكاهة. ولأنه لا يحس بزهو أو خيلاء، كان والفا من نفسه ولم يكن متغطرسا يغيظ الآخرين أو يسخر منهم. كان يعرف الكثير ولا يتباهى بما يعرف. وحاولت أن تكف عن التفكير فيه فلم تعد بعد طفلة ولم تكن من النوع الذي يستسلم للأحلام.

وأطلقت تهيدة عميقة سمعتها ميشيل فرفعت عينيها من وراء النظارة ذات الاطار المذهب وسألتها: «هل تكتبين الى هناك؟»

«لو بقيت في ذرة من العقل لكتبت له، ولكنني أكتب لخالتي»
 «اجابتك توحي لي بشيئين: أن لك قتي وأنت على خلاف معه»
 «أنت على صواب في كلنا الاستنتاجين»
 «هل تفتقدينه؟»

«لا. ولكن ضميري يؤنني بين الحين والحين»

قالت جولي ذلك في ابتسامة حزينة.

«كان يحبك وأنت لا تحبينه، وهذا يجعلك تشعرين بالقلق»
 قالت ميشيل ذلك وهي تريت على اوراق في حجرها مالبت أن رتبها في كومة منظمة ثم وضعتها مع باقي الكراسيات على جانب من الأريكة.
 «إن لدى جون كل ما نعلم به الفتاة في أي شاب، فهو لطيف ومحب ورسم. كنت أهتم به كثيرا ولكنني لم أشعر بالسعادة عندما كان يعانقني»
 وضحكت جولي من نفسها وتابعت: «إنني لم أعثر بعد على قتي أحلامي»
 «طموح زائد!»
 قالتها ميشيل وهي توميء برأسها.

«ماذا؟»

«طموح زائد! شيء كثير»

كانت الكلمتان تعبران عن حقيقة مشاعرها تماما، ومع ذلك لم تكونا تقدمان لجولي تفسيرا محددا لما تبحث عنه. وبدا أن أنسب شيء أن تعمل بتصبية خالتها فلا تشغل نفسها بالمشكلة. وترك للوقت حل كل شيء.

وقالت جولي: «لقد فكرت في الذهاب الى أويلوساوس غدا لأزور متحف جيم باوي ثم أزور مدينة لافايت»

وتطرق الحديث في الذهاب الى ما يعجب السائح في كلتا المدينتين. وعندما استقرت جولي في فراشها تلك الليلة عز عليها النوم وحاولت أن تشغل نفسها بالتفكير في برنامج اليوم التالي، ولكن عقلها كان مشغولا بشبح ذلك الرجل الغريب. ونامت نوما متقطعاً وهي تتقلب في فراشها.

وخرجت جولي الى أويلوساوس ولافايت لتستغند طاقتها الجسمية والعقلية، ونجحت في ذلك الى الحد الذي لم تستطع معه أن تتذكر اذا كان المنزل الذي على هيئة السفينة الغريبة القوطية في أويلوساوس أم في لافايت بينما كان في قرية أصغر حجماً تسمى واشنطن.

وفي الصباح التالي انتزعت نفسها من الفراش انتزاعاً فقد نامت نوما عميقاً واستيقظت كما لو كانت تحت وطأة عقار مخدر. كان قصبها جافاً وكان النوم مازال يلتصق بعفنيها الثقيلين وهي تهبط الدرج. وجاء صوت السيدة لوبلان المرح يتردد في ابتهاج: «صباح الخير»

والضحت جولي بدهشة وعزت مصدر الصوت عندما رأت السيدة لوبلان

قرب باب المطبخ .

وقالت السيدة لوبلان : « تجددين عصير البرتقال الطازج في الأبريق والأنكواب في الخزانة اليمنى فوق الحوض . ماذا تريدان للإفطار ؟ »
« بعض الخبز والقهوة »

وسألتهما السيدة لوبلان وهي تضع طبق الخبز أمامهما وتعود إلى الخزانة لتحضّر القهوة : « ما برنامجك اليوم ؟ »
وأجابت جولي وهي ترتشف عصير البرتقال :

« لاشيء . لقد فكرت في الذهاب إلى المنتزة العام هنا في سانت مارتنفيل »
« حسنا ، لعلك تذكرين أنني حدثتك عن واحد من أصدقائنا يمتلك مستعمرة قديمة »

وحاولت جولي أن تتذكر اسمه وقالت : « إتيان »
« نعم ، لقد اتصل بي هاتفيا بالأمس وذكرت له أنك تقيمين معنا وتودين رؤية المناظر هنا ، وهو يرحب بزيارتك لمستعمرة اليوم »
وردت جولي : « اليوم ؟ اليوم ؟ »

لم تكن تعرف ما إذا كانت في حالة تسمح لها حقيقة بشخصية بعض الوقت مع رجل فرنسي ثرثار كبير في السن .
« لقد اقترح أن نكوّني هناك حوالي العاشرة صباحا قبل أن نشهد ومطأة الحر والحق أنني لم أسفله عن المكان الذي تبحثين عنه ، ولكن من المحتمل أنه يعرف شيئا »

« كاميرون هول ؟ »
« حسنا لقد حسم الأمر . كانت كاميرون هول السبب وراء حضورها وكان من الخطأ أن تفوت أول فرصة أتاحت لها للحديث إلى شخص ربما يعرف عنها شيئا مفيدا .

« لقد أخبرته أنني وافقة من أنك متذهبين . أليس كذلك ؟ »
« وأومأت جولي موافقة وهي تقول :
« أوه .. كم أتمنى ذلك »
« ابتسمت السيدة لوبلان وقالت :

« إن المبد مستعمرة إتيان يقع على مسافة أميال من المدينة وسأكتب لك التعليمات التي تساعدك في الوصول إلى هناك »

وعند التاسعة والنصف خرجت جولي قاصدة مستعمرة إتيان ولم تكن قد استعادت سرورها وابتهاجها بالقدر الذي عرف عنها . ولم تتخلص من تلك الكتابة حتى بعدما اكتشفت أن تعليمات السيدة لوبلان قادتتها إلى الطريق الذي قابلت فيه الرجل الغريب ، بل لقد غمرها الفرح بحماقة عندما قادتتها تلك التعليمات إلى منطقة أخرى من الريف فلم تكن راغبة في أن تعود إلى المكان الذي يذكرها بالعنين الزرقاوين مرة أخرى .

كان هناك طريق ترابي يتفرع عن يسارها يحمل لافتة كتب عليها طريق خاص . ممنوع المرور . وتنهدت جولي فقد كان ذلك الطريق المؤدي إلى المكان الذي تريده . وبدأت تحس بنوع من الاهتمام شغلها عن عنائها عندما اقتربت من المكان المقصود . كانت السيدة لوبلان قد أخبرتها أن المستعمرة ستكون على يسارها بعد مسيرة حوالي ربع ميل من المنعطف في الطريق الترابي ، وكان هناك سور متهدم يسير موازيا للطريق ، وبدا السلك الشائك يفصل في نقاط عديدة عن الأعمدة .

ومع ذلك لم تكن هناك فرصة ليجزو أي إنسان على التعدي بالدخول إلى الملكية الخاصة من خلال السور مالم يكن لديه متجمل ، فقد كانت هناك كروم وأشجار نخيل شائكة ذات سقف مروحي قصير .

كان كل ما تستطيع جولي أن تراه من خلال الأشجار الكثيفة مجرد شبح لبنى كبير أبيض ، وكان ذلك هو القصر المقام في المستعمرة ولكنه لم يكن يرى بوضوح من الطريق . وكان هناك عمودان أبيضان يحددان المدخل الذي كان مغلقا بواسطة بوابات حديدية صنعت من قضبان متقاطعة .

وبدأت تحس بوضوح أن العز والأبهة قد أدارا ظهرهما إلى ذلك القصر . وفكرت في صاحب المستعمرة إتيان وتوقعت أن يكون شخصا شاذا غريب الأطوار . وأوقفت سيارتها الفولكس واغن على جانب الطريق الضيق ونزلت وانتهت إلى البوابة وراحت تنظر من خلال القضبان محاولة أن تجد أثرا للحياة كان المكان يبدو مهجورا واستطاعت أن تجد الجرس يتدلى إلى جانب أحد العمودين وجذبت الحبل الملتصق به وتردد صوت الجرس قاطعا الصمت . وكان من المتوقع أن يؤدي ذلك القرع غير المنسجم إلى إيقاظ أي شخص نائم . وخطت خطوات لتقف أمام البوابة .

وسمعت خفيفا مفاجئا ينيء عن شيء ينطلق دون أن يلاحظ ، تبعه

صوت دوامة هوائية تنجبه إليها . وفجأة وجدت نفسها تخدق النظر في الأبواب البيضاء المعبرة عن الغضب كشف عنها كلب مزمرجر وضع رجله الأماميتين على البوابة حتى أصبح على مستوى النظر معها . وقفز قلبها الى حلقها . وتسمرت ساقاها وهي تخدق في كلب ألماني من كلاب الرعي . كان في سواده أشبه بليل بلا قمر ولا نجوم . لم تكن تلك هي التحية التي توقعها . ولم يكن ذلك هو الضيف الذي جاءت تزيرو .

وعاد إليها الإطمئنان عندما أدركت أن الكلب لا يستطيع أن يتخطى البوابة . ولم يكن في نيتها أن تنظر من يكون السيد إثيان ، أو كيف يبدو أنه سيكون . وقررت العودة الى سانت مارتنفيل . وبينما كانت متجهة نحو سيارتها سمعت صوتا قويا يخاطب الكلب قائلا :

« هلاك ، اركع على الأرض »

والفتحت جولي الى الوراء لترى على الفور فم الكلب المزمرجر يطلق أنه مرحلة بينما جثي على أرجله الأربع وأخذ يهز ذيله وقد أدار رأسه نحو الرجل الذي بدأ يخرج من القصر . وحدقت جولي وهي تكاد لا تصدق عندما رأت الرجل يرت على رأس الكلب قبل أن يواصل السير نحوها . لقد كان الرجل الغريب نفسه الذي قابلته عند الرافد .

وبدت على ثغره ابتسامة عريضة زاد في وضوحها اللسمان الجريء في عينيه الزرقاوين وهو يقول :

« أرجو أن تصفحي عن هلاك وطريقته في الترحيب بك . انه لم يتعود على الغرباء حتى ولو كانوا من النساء الصغيرات الجميلات »

« لقد جئت »

وتجمدت الكلمات في حلقها وهي تحاول أن تخدق فيه . وانتابها الدهشة والحيرة وتابعت : « أ .. أنت .. أنت إثيان ؟ »

« في خدمتك يا آنسة جولي أنطوانيت سمث ! »

كان يحن رأسه انحناءة كبيرة ، وبدأ شعره القاتم يلعب في سواده يشبه سواد كلبه هلاك .

« ولكن كيف ؟ أعني كيف عرفت ؟ »

« كانت تتلعثم مثل تلحيد في المدرسة . »

« كنت متأكدا الى حد ما ، فقد تعرفت على سلة الطعام وعلى طريقة

جوزفين في الطهور ، وتأكدت من ذلك عن طريق مكالمة هاتفية معها . وفتح قفل البوابة وحرك ضلقة مصراع الباب ليمح لها بالدخول ، وأحس باندفاع عندما أدركت أن إثيان كان يقضي أثرها . ولم نستطع أن نخفي سرورها للعثور عليه مرة أخرى . واجتازت البوابة ذات القضبان وما أن خطت نحو الداخل حتى توقفت لتطرح سؤالا خطر لها :

« لماذا لم تخبر السيدة لوبلان بأننا تقابلنا في اليوم السابق ؟ »

« كان قد أغلق البوابة وراءها ووقف قريبا منها لدرجة أنها كادا يلتصقان . وكاد إقترابه منها يجعلها تكف عن التنفس خاصة عندما بدأت تتفحص تعبيراته التي لا تعرف عمقها في عينيه الزرقاوين المبتهجين . »

« ولماذا لم تفعل أنت ؟ ! »

« لم تكن لي الميزة ذاتها التي كانت لك ، فلم أكن قادرة على استئجار المكان الذي تقيم فيه . »

وظهر على وجهها حمرة خجل طفيفة استطاعت بعدها أن تخطو لتجنب التصاقه الذي كان يسبب لها شيئا من التوتر وأضافت :

« ثم كيف كان يمكن أن يكون وقع ذلك لو أنني أخبرتها بما حدث لدى لقائنا بعد الظهر في ذلك اليوم ؟ »

« وضحكت في تردد وواصلت :

« كيف كان بإمكانني أن أقول مثلا يا سيدة لوبلان ، لقد تقاسمت طعام رحلتي مع رجل له شعر أسود ، وعينان زرقاوان تفيضان بالحياة ، وعمره في الثلاثينات ، ولكنني لا أعرف اسمه ؟ ! »

« وهز رأسه وابتسم قائلا :

« ليس غريبا ، ولكنك لاتقدرين على ذلك ولعل هذا هو السبب الذي منعي من أن أطلبك بالتليفون »

« لا تطلبيني ؟ لماذا ؟ »

« كان الاضطراب قد بدأ يظهر في خطوط منكسرة على جبهتها بينما أمسك ذراعها وهما يسيران نحو القصر وقال :

« فيما مضى كنت أجنب العذارى المفعمات بالنشاط والحياة لأنهن في العادة يجلبن التعقيد الى حياة الانسان وهي مسألة ضئيلة »

« واذن ، لماذا طلبتي ؟ »

« ربما دفعني باعث الى ذلك ! »

وتسمرت يده على ذراعيها لتحد من خطواتها وجعلها تقف بجانبه ،
وركرت جولي عينيها على حذائه اللامع وعلى بطلونه الأبيض العاجي ، وبدأ
في كل حركة من حركاته انه صاحب المستعمرة المهيب . واستأنف الكلام :

« ولكنني يا جولي سعيد لكوني استسلمت لذلك الباعث »

ولم تستطع اخفاء احساسها بالسرور ، كانت تريد أن تقول انها سعيدة
كذلك ، ولكن كبرياءها وعدم تأكدها من مشاعره نحوها منعها من ذلك .
ولم تستطع في الوقت نفسه أن تنكر سعادتها لأن ذلك كان يبدو كذبة
واضحة . ولم يكن اتيان ذلك الرجل الذي يتعب عنه ذلك . ومن هنا فضلت
ألا تجيب على الاطلاق وسألها :

« هل أنت أسفة لجيئك ؟ »

ولم تحاول أن تكذب . فقد كانت عينا تلحظان بدقة كل سكتة من
سكتاتها فقالت : « لست أسفة »

قالت في صراحة وقد استجمعت كبرياءها لتواجه عيني المتفحصتين وبدأ
على فمه طيف ابتسامة وقال :

« انك عظيمة فالصراحة عادة ليست فضيلة تنسم بها النساء »

وعلمت على الفور : « ولا الرجال »

وضحك ضحكة خافتة اقترنت بها ابتسامة عريضة وأحست جولي بالدفء
يقمر وجنتيها . واستأنفت السير على الفور وهي لا تخفي احساسا واضحا
بالرجل الذي يسير الى جوارها . وقال وهو يضحك :

« ان لسانك لا ذع . أعتقد أننا سنستمتع تماما بيومنا يا بلاك »

كان يوجه كلمته التي قصد بها المضايقة الى كلب الرعي الألماني الذي
يسير مسرورا الى جانبه ، وكانت عينا جولي البينتان اللامعتان تنظران في شيء
من الغيظ الى طريقته الزائدة عن الحد في اظهار الثقة بالنفس .

* * *

كانت الشجيرات الكثيفة قد بدأت تتضاءل دون أن تلاحظ جولي ذلك .
وبدأت خطواتها تتعثر ، ثم توقفت نهاما . فقد كان أمامها منظر لا يمكن أن

تتغاضى عن رؤيته . كان هناك قصر ضخم يرتفع في الفخامة . واحتجبت
أنفاسها . فالأعمدة الضخمة تحيط بالبناء المربع الشكل وتحمل شرفة في الطابق
الثاني كذلك الافريز الثقيل الذي يزين السقف المسطح . وكان ارتفاعه يشير
الرغبة . وكانت هناك ضلع خشبية ذات لون أخضر غامق ، تغطي النوافذ التي
تتمدد من الأرض الى السقف في كل طابق ، وتحمل واجهة المنزل التي تحولت
الى لون أصفر باهت مع مرور الزمن ، بينما ندل أجزاء متبقية من الطلاء على
أن القضبان الخشبية في الشرفة العليا كانت في يوم ما مطلية بطلاء أبيض .

وبرغم الشوائب التي أثرت على البناء الذي عمره قرن ، فقد بقي للمبنى
بهاءوه وفخامته اللذان لم يكن يعرف السر وراءهما . وكان طرازه الاغريقي
يضيء عليه رونقا ملكيا رغم تهدمه الجزئي . وكانت المستعمرة محاطة بأنجار
البوط الضخمة وأغصانها بحجم جذع الشجرة العادية ، تتدلى الى الأرض
بدرجة تمكن الانسان من أن يجلس عليها كما لو كانت مقعدا . وكما هي
العادة ، فقد كانت تلك الأغصان المورقة مكسوة بالطحالب الآسيانية ذات اللون
الرمادي المائل الى الاخضرار .

وحولت جولي بصرها في النهاية الى إتيان الذي كان يتسم في رقة
وتعاطف وقد أدرك كم كان المنظر مثيرا . وقال :

« ان المعبد يترك دائما الانطباع ذاته على أي وافد غريب »

وعاودت النظر الى المستعمرة وأطلقت أنفاسها قائلة : « يا لسعادتك بامتلاكه »

وابتسم في حزن وقال : « انها هي التي تملكني »

كانت عينا تلاحقان عيني جولي ، بينما استقرت يده على ظهرها . واستأنفا
السير نحو القصر وواصل كلامه :

« وانها لأعز لدى من أي سيدة عرفتها من قبل . لقد شهدتها لأول مرة منذ
أربع سنوات ولم تمضي سنة بعدئذ حتى كنت قد استسلمت واشتريتها »

ونظرت جولي اليه في شيء من الدهشة ، وقالت :

« كنت أظن أن المعبد كان مقر إقامة أسرته ، وأنت قد ورثته عن أجدادك »

« لو كان كذلك لما سمحت بأن يصل الى الحال التي كان عليها عندما
اشترته . لقد كان يستعمل حظيرة للمواشي ! »

كانت هناك خمس درجات تؤدي الى الرواق الخشبي المسقوف والى الباب
الضخم المزودج المؤدى الى الداخل . ولاحظت جولي أن الأجزاء التي اكتست

بالأواح خشبية حلت محل الأواح البالية في المدخل، بينما فتح إتيان أحد الأبواب ووقف ينظر أن تتقدمه لتدخل إلى البيت. وكان المكان معتما إلى درجة كبيرة في البداية، ثم اعتادت عينها النظر في غياب أشعة الشمس الساطعة. وبدأ إتيان يفسر لها سبب البرودة في الداخل، «إن سماكة الجدران تصل إلى حوالي قدمين، ولذلك تظل درجة الحرارة منخفضة على مدار السنة» كانت الردهة الفسيحة تقسم المنزل قسمين، وكان هناك باب آخر مزودج أمام جولي. وعندما فتحت وجدت على جانبي الردهة أربعة أبواب، وكانت هناك على الجانب الآخر ثلاثة أبواب وسلم حلزوني. وكان المكان خاليا من أي أثاث ما عدا متضدة. وأمسك إتيان بعرقها، ومار بها إلى الصالة وقال:

«إن أرضية الطابق الأسفل خربت بالماشية كليا، وقد استبدلتها بأخرى جديدة في الشتاء الماضي.»

وتبعته جولي وهو يسلك الطريق إلى حجرة مخصصة لحفظ أدوات المائدة. وكذلك إلى الحجرة الكبيرة التي تشبه حجرة المعيشة في يومنا هذا، ثم إلى حجرة المائدة فحجرة المكتب حيث كان مالك المستعمرة يصرف أموره اليومية ويحفظ سجلاته. وأغيرا إلى حجرة صغيرة كانت تستخدم قاعة للجلوس. كانت كل الحجرات عارية من الأثاث ونجت الترميم. ولاحظت جولي الخطوط القاسية على وجهه وهو يشرح كيف أن أماكن المدفأة المحفورة في كل حجرة قد خربت عن عمد وأصبحت غير قابلة للإصلاح، وأوضح أن بدائل منها يجري إعدادها وأحست بغصة لأن الصورة الأصلية لن تعود كما كانت. وانقسم وقال: «شكرا لله أن الماشية لا تحاول أن ترتقي السلم.»

وقادها إلى الدرج وتابع: «هذا القصر له سلالم حلزونية بيضاوية فاخرة لا تستند إلى دعائم خارجية، والدرج مصنوع من الخشب السرو، أما الدرابزين المنقوشة فمن الماهوجني ولم تستخدم المسامير في تثبيته، فكل عمود ركب بعفره في الدرج وفي القضبان.»

كان الخشب لا يزال يحتفظ بلمعانه أملس صقيلا، ولم تستطع جولي أن تمنع بدءا من الانزلاق على سطحه وهما يتسلقان الدرج إلى الطابق الثاني. وهنا وجدت أن المدافئ في حجرات النوم لم تنس رغم مظاهر الإهمال فيها. وكان إتيان قد قام بتنظيف إحداها وأعاد طلاؤها، وكان هناك مزيد من الأثاث يعاني من القفارة التي تطمس جماله.

واصطحبها مرة ثانية إلى الردهة التي تقسم الطابق الثاني إلى قسمين متساويين يقع عند طرف كل منها باب مزودج يؤدي إلى الرواق العلوي. وجعلها تختار أحد هذين البابين، وكان المنظر الذي شهدته مشيرا وأدركت أنه يطل على الجانب المقابل لواجهة المبنى حيث المروج الخلفية. كان هناك شريط من المياه اللامعة يرمض لعبينها من خلف أجمة من أشجار البلوط والنباتات جميلة الأوراق والزهور. والتفتت إلى إتيان سائلة:

«هل هناك بركة مائية؟»

«ذلك هو الراقدة» نيشه. لم تكن هناك طرق في الماضي، وكانت المستعمرات تقام على حافة راقدة أو آخر للانتقال. تماما كما كانت المستعمرات الأولى تقام على ضفاف «المسيبي» وبذلك كان يسهل عليهم نقل المحاصيل. فقد كانت المجرى المائية هي الطرق في الماضي في لويزيانا. وأرمأت جولي اقتناعا، وبدأت تنظر من جديد إلى المروج الخضراء وخطرت لها فكرة مفاجئة: «إنك لم ترني المطايخ. أين هي؟»

«كان الناس يخشون النار كثيرا، ولذلك لم يقيموا المطايخ داخل المبنى الرئيسي.»

وانقسم إتيان لسؤالها الأثوري وتابع: «لقد وجدت بعض الأساسات في الجانب الشمالي على مقربة من حجرة الطعام، وأعتقد أنها كانت مطايخ.» وسأله: «أين تعيش؟»

ولمعت عيناه لسؤالها بشكل أربكها، وتابع: «أقصد، بمقل أنك تعيش داخل هذا البيت، أو على الأقل ليس الآن.» وأخذها، وقال: «تعال، سأريك أين أعيش.»

«إن دفع يديه يبعث فيها شعورا بالرجفة.

٦ - النار الطيبة

عاد إتيان ومعه جولي إلى الطابق الأرضي عبر الباب الذي دخل منه، ثم استدار إلى اليسار بدلا من أن يسلك الطريق المؤدى إلى سيارتها، وبينما كانا يدوران حول القصر اكتشفت جولي مبنى بدا وكأن نسخة مصغرة عن المعبد وصاحت في بهجة: « انه نسخة مصغرة ومطابقة للقصر ».

« تعرف عادة باسم الفارمونييرة حيث كان يسكن عادة الشبان غير المتزوجين من الأسرة ».

وفتح الباب ثم وضع يده على كتفيها ثانية واصطحبها إلى الداخل. كانت حجرة واحدة كبيرة تصل بدرج يؤدي إلى الطابق الثاني وحاجز حديدي يعزل منطقة المطبخ. وكان الأثاث بسيطا يناسب الرجل. وقادها ضخط يده عليها إلى داخل الحجرة. كانت أشبه بذبابة وقعت في شرك عنكبوت لاستطيع الخلاص منه. وجا صوت إتيان في اغرائه وتدليله الرقيق يقترب من أذنها، أو على الأقل تصورت ذلك اذ سمعته يقول: « هل أحضر لك شرابا مشطبا؟ ».

وخطا نحو المطبخ. وراحت جولي تذرع الحجرة الصغيرة في تردد. وأحست بأنهما قد أصبحا في مكان منعزل مما سبب لها بعض القلق. وشعرت أنه ليس من الاتق أن تكون في منزل إتيان رغم أنها كانت تتجول في بيت جون تالبرت بحرية كاملة. وقدم إتيان إليها الكوب وقال: « عصير ليمون ».

ونظرت جولي بحذر إلى عينييه اللتين أخذتا تضيقان، ورأى يدها ترتجف وهي تتناول الكوب فيما كانت رموشه القائمة المتجمدة تظلل زرقة عينيه.

« هلا جلسنا في الخارج؟ ربما تكونين أكثر اطمئنانا هناك ».

قالها وهو يسخر منها، لكن جولي قبلت الاقتراح. وعندما جلسا على الكرسي فوق المرح الأخضر فقدت المحادثة بينهما حرارتها. وقع إتيان بالنظر إلى البيت الذي يسيطر على المنطقة. واستغلت جولي الفرصة لتفحصه عن

قرب. لم يكن في نظرها الشخص نفسه الذي التقت به من قبل أو خيل إليها أنها التقت به. كانت لا تزال هناك رشاقة الحركة وذلك التماسق الغريزي الذي يميز الشخص الرياضي، والعينان الزرقوان القامتان نلمعان بالبهجة، والابتسامة تظهر الخطوط الغائرة قرب فمه. ومع ذلك بدا لها وقد مال إلى التراخي والكسل كأنه شخص لا يأبه للحياة. واليوم رأت جولي شيئا آخر. رأت فكه يبرز في تصميم، وأنفه الدقيق يظهر في استقرائية تعبر عن الأشمئزاز، والعينين الزرقاوين تضطربان بالغضب المتأجج، والشدة القاهرة التي تنبعث وكأنها شذى حوله. وجذب انتباهها كذلك وقاره وتصميمه الحديدي الذي ينبئ بأنه يمكن أن يكون قاسيا متحجر القلب إذا شاء. وسألها وقد أشاح بوجهه بعيدا عنها: « أما زلت تردددين في أن تثقي بي؟ ».

كانت صورته تنطبع على الأشجار القائمة أمامها، وأيقن أنها كانت تتأمل ملامحه، قالت:

« لو وضعت قرطا ذهبيا في أذنك لبدأ مظهرك كقصرصان بارع ».

وبدت وهي تحاول إخفاء حمرة الاضطراب الظاهرة على وجهها.

« أقبل ذلك على أنه مديح واطراء ».

وباتت بتفحصها. وحاولت جولي أن تتجنب نظراته الثاقبة. وواصل كلامه:

« للأسف، انى رجل فقير لا يمتلك سوى المستعمرة ».

وعلقت في ما بدا أنها تغير الموضوع:

« ان أغلى ما في الحياة متاح للجميع بالمجان ».

« أوكد لك أنك، بطريقة أو بأخرى، تدفعين الثمن لكل شيء ».

قالها بشيء من الضحك والأنفة والاعتزاز.

« وما ثمن الحب؟ » قالتها وقد أدهشتها النغمة الساخرة في صوته.

« ان أغلى ما يملكه الرجل.. هو حرته ».

وضحكت جولي وهي لا تدرى كيف تعلق على ملاحظاته، وقالت:

« هل أنت من أولئك الرجال الساحطين الذين يصممون على البقاء دون

زواج؟ »

« وهل أنت واحدة من أولئك اللاتي يعتقدن أن السعادة ينبغي أن تنتهي

بالزواج؟ »

ورفعت ذقنها في شيء من التحدى، وأجابت:

« نعم ، ولا . يبدأ بالحب وتستمر بالزواج ، وأنا أحب الشاعرية . »

« أنك تتحدثين في صدق . وما هو الحب ؟ »

وتنشق نفسا عميقا ، ثم زفرت أنفاسها ببطء وهي تخدق بالشمس الساطعة .
تفرق البيت في وهج أصفر عميق :

« لأعرف ، ولم يسبق أن جربت الحب . وماذا عنك أنت ؟ »

« مرات عديدة . »

كانت سطوة عينيه الساخرتين قد انجذبت إليها ، وأحسست بالقوة الكامنة في رجولته . وتابع : « وهذا هو السبب في كوني لأؤمن به . »

« إذا كانت حريتك غالية لديك إلى هذا الحد ، لماذا ربطت نفسك بهذه المستعمرة التي قلت إنها تأسرك أكثر مما تفعل أي امرأة ؟ »

« أنك تنصنين إلى ما يقوله الرجل ، وهذه ميزة أخرى نادرة . »

كانت عيناه تفضحها بنظرة بطيئة وهما تخدقان . وواصل كلامه :

« أضائي السفر ، وكنت لأعرف شيئا عن أجدادي . وهذا المكان كان

يحمل اسمي . »

« لا أفهم . »

قالت لها وهي ترفع رأسها متسائلة . وضحك وقال : « سوف أطلعك . »

ووضع كفيه على الأرض في الرواق المكسوة بالأجر في الغارسونيرة ، وفعلت جولي الشيء نفسه . وامتدت يده حولها لمعاونتها على هبوط درج الرواق الضيق . وأحسست بضيق لأنه يرفع الكلفة معها في سهولة . ولم تستطع أن ترد بالطريقة ذاتها من عدم الاكتراث . كان إتيان يحيرها . كان لغزا بالنسبة إليها ولم تستطع أن تمنع خاطرا طرا لها عما جعله يعامل النساء بذلك الحذر . وعادت تفكر أنه ليس حذرا لكنه غرور من الوهم . وكان طبيعيا أن الرجل له جاذبيته الكبيرة تجتمع النساء حوله كما يجتمع الذباب على عسل النحل وربما نشأ احتقاره للنساء من كثرة ألفته بهن . أرادت جولي أن تقطع الصمت الذي ساد وهما يسيران فقالت :

« إذا كنت أحسست بالحاجة إلى الاستقرار فهل فكرت في أن يكون لك أطفال ؟ »

والقى عليها نظرة جعلت احشائها تضطرب . واستقرت عيناه على شفثيها فترة أطول قليلا مما تختلج ، وفكرت كيف يكون الحال لو أنه عانقها .

وكانت تعتقد أنه له خبرة كبيرة في المغازلة . وقال :

« ولكن الأطفال ليسوا مجرد نتاج للزواج . »

وكان وراء إصماته شيء كثير من الخيت جعل جولي تدرك أنه كان يحاول أن يصددها . واحتفظت بهدوء صونها في الدرجة التي لا تصل إلى توبيخه أو السخرية منه . وقالت :

« من الأفضل للطفل أن يولد في ظل الزواج . »

« أنك تتحدثين الصواب دائما . »

وتوقف إتيان وتوقفت جولي . وكانت يده تضغط على ذراعها كأنها تصدر أمرا لتبقى حيث كانت ، بينما سار هو إلى شجرة مزهرة وقطع زهرة كبيرة بيضاء قربها من أنفه ليشم عطرها قبل أن يقدمها إليها . وعندما أطبقت أصابعها على يده لتتناول الغصن الصغير لم يفلتها على الفور بل أخذ يضغط عليها لتبقى وقال في صوت أجش :

« إن الفضيلة ينبغي أن تنال المكافأة دائما . »

واختلست نظرة إلى رموشه من وراء نقاب رموشها وبدأ أثر الابتسامة كان قد كبها ، وأخذ يتطلع إلى المنظر المستند أمامها . وكانت ذراعها حول خصرها تدفعها إلى الاقتراب من المرأة المائبة العاكسة . كان هناك عمود حقيق تنتشر عليه بعض البقع أقيم وحيدا قرب الماء . وكان نظيره يرقد في كومة من انقاض الحجارة وبقايا النقش وسط الاعشاب الطويلة . وفي المكان كان المدخل الامامي للمستعمرة ، وكان يشبه البوابات التي دخلت منها جولي ولكنه الآن قد تحول إلى أطلال . وقادها إتيان إلى العمود القائم في هدوء :

« هذا ما جعلني أتخذ القرار النهائي بشراء المستعمرة . »

راحت جولي تشاركه التحديق في العمود حيث كانت هناك حروف باهتة محفورة بقيت رغم فعل الزمن . وكانت متأكدة لدرجة أن جولي استغرقت بعض الوقت لتقرأ الكلمة : « كامبيرون . »

ونظقتها في نعمة تكاد لا تسمعها الأذان وهي تنعم النظر خشية أن لا تكون كذلك . وباتت تخدق في انجاء القصر المنتصب بكل فخامة بين أشجار البلوط الضخمة قبل أن تستدير إلى إتيان ودموع الفرح تملأ عينيهما :

« لقد وجدته ! »

كان صونها خاطفا ، حاديا وملغما بالعاطفة ، وواصلت :

« لقد وجدت كامبيرون هول »

وامتدت يدها تتحسس يده والسعادة تغمرها ، وقد حيرته بهجتها ونجحت في أن تجعل تلك البهجة تندفق وقتا سمح لها أن تعطيه فكرة عن التفاصيل . وتركت ذراعيها لتلفان حوله وهي تتحقق في الاسم المحفور على العمود . وأسندت رأسها الى صدره العريض تعبيراً عن سعادتها وتابعت :
« لأخذ مما سألتهم سمع من قبل عن كامبيرون هول . وكنت أخشى ألا أجدها على الاطلاق . والآن أجد أنها بيتك ! »

لم يكن يوسع جولي مواجهة عينيه فقد أحست بشيء من الخجل لأنها استجابت بحرية كاملة . وسألها في رقة :
« هل أشكرك لم أشكر أسلافك ؟ »

وهمست قائلة : « الأتيان »

« ابقني معي لتناول وجبة الظهيرة سوياً »

وترددت ثم سمعته يقول : « جولي ! »

وأحست به ينحذب اليها وقالت : « أود أن أبقى هنا »

كانت نظراته اليها نوحى بأنه ربما حاول أن يصل الى غاية وبطريقة أو بأخرى . وقال : « أما عن الطعام فانه اخر ما أفكر فيه الآن »

وسلكا الطريق الذي سلكاه من قبل عائنتين الى القصر . وعطرو لجولي أن المنزل الكبير كان ينظر اليها بالرضى والارتياح ، وتنشفت نفساً عميقاً محاولة أن تستمتع بكل عطر وبكل صوت أحاطا بها في أسعد لحظات حياتها . فهي لم تكتشف كامبيرون هول فقط ولكنها اكتشفت إثيان كذلك . وكان قمها بشرق بانسامة ذهبية كضوء الشمس ، وعندما دخلوا المبنى الصغير الذي يمثل صورة طبق الاصل عن القصر وقال :

« أمن الضروري حقاً أن نأكل الآن ؟ »

وقالت في نلعم : « ينبغي أن تقول نعم »

وأطلت عيناه الزرقاوين وقد ضاقتا على وجهها الذي كان يحاول أن يحتفظ بشبهته وقال : « انك على صواب بالطبع ! »

ولمست يدها ذراعه محاولة ليقاها عندما هم بالابتعاد عنها . ونظر الى القلق البادي على وجهها وقال لها في حدة :

« لا تنظري الي هكذا ، ربما لا أكسب الجولة الاخرى مع ضميري . لقد

كنت بالفعل مبساً في القضاء على راحتي النفسية . وأدركت جولي عندئذ أنه كان لا يريد أن يكتفي بالمقابلات الظاهرة وعرفت كذلك أنها مالم تكن على استعداد لتحمل النتائج فإن الأفضل أن تتركه يأخذ المبادرة . ولابد أن شيئاً في ملامحها كان يعكس التردد الواضح في مبلغ ثقتها ، فقد رفع إثيان ذقنها المطاطة وابتم قائلاً :

« نسيت أن أخبرك أن عليك أن تساعدني في اعداد وجبة الظهيرة »

وأجابت في مرح : « انني ماهرة جداً في ذلك . إذ حصلت على دبلوم في الاقتصاد المنزلي »

« ينبغي إذن أن نستفيد من دراستك بطريقة عملية »

وانته إتيان الى الشلاجة وفتح بابها وقال :

« ما الذي تستطيع خريجة الاقتصاد المنزلي أن تصنعه من بعض الخس وبقياء اللحم وبعض البيض المسلوق وبعض ثمرات الطماطم ؟ نريد شيئاً لذيذاً المذاق ، فهذا كل ما لدينا من الطعام »

كانت تستطيع أن تضحك في بساطة الآن وقالت :

« اذا استطعت أن تخضر شيئاً من الزيت والخل وبعض البهارات امكثني أن أعد طبق سلطة ممتازاً »

وأجابها مشجعاً : « انه الطبق المفضل لدي ، واطركمي لي البافي »

ولم تجد جولي وقتاً لتعرف كيف استطاع إثيان أن يجهز كل شيء لأنها كانت مشغولة بعملها الروتيني . وكان مذاق واحد من المشبل كقبلاً بأن يشير الشهية . واستطاع هو أن يحول الحديث بحكمة الى مشروعات لترميم المستعمرة . وكانت جولي تبدي اهتماماً واضحاً بالحديث ، ومع ذلك كانت بين الحين والآخر تخلص النظر الى بريق شعره الأسود أو الى التباين الحاد بين عينيه الزرقاوين وبين قامته وملامحه الأخرى . ولم تستطع أن تتابع مشروعاته كان مجرد النظر الى وجهه الوسيم كافياً لأن يجعل جولي تترنح وهي تكاد لاتصدق أنه يمكن أن ينحذب اليها . قال :

« وفي الايام الماطرة كنت أعني باكمال الخشب اللازم لأريكة على الطراز الفيكتوري والكريسين ينسجمان معها »

وكان خلال ذلك يحسني شراباً بصاحب الوجبة التي يتناولها ، وواصل :

« وسوف يحتاج الأمر الى طبقة أخرى فقط من الطلاء ونكتمل الأريكة .

وبقى فقط إعادة التمجيد وسوف يكلفني انجازها الكثير

وصاحت جولي : « التمجيد .. إنه هوايتي »

ونظر إتيان إليها نظرة جعلتها تحمر خجلا ، فلم تكن تقصد وضعه في موقف يجعله يطلب المساعدة في هذا العمل . وقالت بسرعة : « انني ماهرة حقا في التمجيد وكنت أكسب تقودا خلال فترة الدراسة من هذا العمل »
« أنا لأشك في قدرتك ولكنني أتذكر أنك قلت أنك هنا فقط في اجازة »
وانفتح صدرها بالبهجة إذ أدركت أنه لم يكن يركز على التمجيد قدر تركيزه على احترامها الرحيل . أي أنه يركز عليها هي فقالت :

« كنت قد خططت للإقامة ثلاثة أسابيع ، أو إلى أن تنفذ تقودي »

ولم في عينه ضوء خطير وهو يقول :

« في وسعي أن أعرضك وقتك إذا كان بإمكانك البقاء فترة أطول »

وضحكت ويداعها تبتسان في كأس الشراب وقالت :

« ربما تندم على ذلك العرض »

وتردد ثم قال : « ألا يكون مخجلا أن تضطري إلى الرحيل بينما لم بعضي على اكتشافك لكامبيرون هول غير وقت قصير ؟ »

وفكرت جولي في صمت ثم قالت : « وأنت ؟ ماذا عنك ؟ »

كانت تفكر لماذا اختار كلماته بهذه العناية وكان من الواضح أنه لا يريد أن يرتبط . وأدركت أنه لا يحق لها بناء على ثقته في مشاعرها نحوه ، أن يعتقد العكس . كان يرى أنها جذابة وكانت على ثقة من ذلك ولكنه كان رجلا . وكانت ترى أن الحب ليس عاطفة ضرورية لدى الرجال عندما يصل الأمر إلى الارتباط أو على الأقل ليس بالقدر ذاته لدى المرأة . وكان قد أخبرها بالفعل أنه لا يؤمن بالحب .

وبدأت يداعها تضطربان وأسرعت نشغلها بتكديس الأطباق لتحميلها إلى حوض النسيل . كانت تدرك أن إتيان يلاحظها باهتمام وتركيز ولكنها لم تكن تعرف ماذا تقول . كان خارجا عن نطاق خبرتها السابقة وحرصت على أن تلتزم بالحديث حول الموضوع الذي بقي علاقتها في منتصف الطريق وقالت : « انني سعيدة لأن كامبيرون هول لم يتم ترميمها »

وكانت تجرص على أن يظل صوتها رقيقا وهي تحمل الأطباق إلى الحوض وتابعت : « لأن بقاها على ما هي يحفظ لها الطابع الذي كانت عليه منذ

زمن بعيد »

وانفتحت موجهة الحديث إلى إتيان لكنها وجدته واقفا بجانبها مباشرة . كان يظل عليها بحيث شعرت أنها قزم لاقيمة له . وزادت من ذلك الشعور الملامح المبهمة على وجهه في شيء من الفتامة . وجاءت كلماته تثير في عينيها غثات من الألم وهو يقول : « انك انسانة تحبين الحياة العائلية يا جولي ، وأرجو أن تعرفي أن الزواج لم يكن في يوم جزءا من مشروعاتي »

« ما الذي تنظر مني أن أرد ؟ »

قالت ذلك وهي تجلس دموعا كادت تقفز إلى مقلتيها . وأجاب في حدة فاطمة بينما كانت عيناه تسلطان نارهما الباردة على وجهها .

« لأريد للفق أن يظل برأسه القبيح »

« ومع ذلك فمن حقني أن أعرف أنني لست طفلة »

« لا . انك امرأة كاملة ، ولقد اكتشفت ذلك »

كانت فتنة الطاغية قد اسيرتها تماما وبدأت تتحرك حوله في شيء من الزهو وهي تجمع بقية الأطباق . ولكن ذراعه امتدت لتسد الطريق أمامها وقال :

« وبالرغم من تعقلي الذي يناديني أن أدعك تخرجين من هنا قبل أن تؤذيك فإن عقلي يلح بأن أجد الأسباب لبقائك »

كان صوته عناقا هاما وأحست جولي بركبتها تنهاريان ، وأدركت أنها إذا تركت الخيار ليديها فستجدان أن طريقهما إلى عنقه . وأجبرت نفسها أن تستدير نحو الأطباق المتسخة في الحوض . وقال في صوت أجش :

« هل تعرفين أن كلمة جولي تعني جميلة في الفرنسية ؟ »

« وماذا عن اسم إتيان ؟ »

وعانقها قائلا : « استيقن »

فتأوهت جولي وابتعدت عنه بحيث لم يستطع أن يمنع انطلاقتها من المكان . وأحست بطعنة مفاجئة في شيء من الخوف توجه إلى قلبها . وانتابها فرح كبير إذ تذكرت ميشيل وعي يتحدثان عن شخص يدعى استيفن .

كان ينظر إليها بشيء من الحيرة والحذر :

« من المؤكد أن السيدة لوبلان أخبرتك من أنا . إن اسمي كامبيرون ، ستيف كامبيرون »

« لقد كانت تسميك إتيان »

قالت لها جولي في هدوء وتذكرت ما حدثها عنه ميشيل في تخدير اذا قالت لها : إن النار تشتعل واذا ما اقتربت من ستيف فستحرقين «
وكانت أميرة لوبلان تعتبره محجوزا لكلودين لوبلان . واختتم الحديث قائلا
« لقد كانت دائما تسعيني إتيان » .

٧ - أقوى من الريح والمطر

وبدأت بعض الأسرار تتكشف امام جولي ، فقد كان غي قد ألح أن ستيف خصم هائل . ولم يكن ذلك إلا بعض الحقيقة عنه . وقد خبرت بنفسها كيف انهار دفاعها أمام أولى مداعباته . ولم يكن غريبا أن يكون وجود اسم كامبيرون على العمود وراء شرائه المستعمرة . ونظرت جولي الي إتيان وقد أصبح الآن ستيف كامبيرون وضحكت في اضطراب وقالت : « أشعر بغباء كبير ، فقد تحدثت غي وميشيل عنك باسم ستيف بينما تحدثت السيدة لوبلان عن إتيان ولقد ظننت انني سأقابل رجلا يعيل الي سن أكبر »
« أستطيع أن أفهم كون غي يتحدث كيفما شاء ليشوه سمعتي لديك ، ولكن لماذا تفعل ميشيل ذلك ؟ »
« ليس لغني مأرب في . أما ميشيل فأنا التي سألتها عنك وقد وصفتك لي فقط »

وابتسم ابتسامة عريضة وقال : « لانتقولي أن ميشيل تعتبرني خطرا »
« وأجابت على الفور : « ليس عليها »
ومالت عيناها الزرقاوان الي الفتاة وتحدثت في شيء من الأغواء :
« هل أنا خطر عليك ؟ »
كانت تدرك بالفعل أن ستيف كامبيرون يعني خطرا بالنسبة اليها ، ولكنها لم تكن على استعداد للبرح باحساسها وقالت :
« لا تكن سخيفا فأنا واقفة من أنك لا يمكن أن تأذيني »
وأخذت تجمع بقية الأطباق وتابعت :
« هل أخبرتك السيدة لوبلان أن كلودين متصل يوم السبت المقبل ؟ »
« نعم . ذكرت ذلك »
قال ذلك وهو يتناول الأطباق من يدها ليضعها في الحوض . وأضاف :
« أتركها وتعالى شاهدي الأثاث الذي كدبت أنتهى منه »

وانضطخت شفتاها عندما حول مجرى الحديث عن حياته الشخصية وعن علاقاته بكلودين . وحدثت نفسها : وقد تنقصني الخبرة ومع ذلك فلست فتاة ريفية خجولة تتسحب بهذه السهولة .

ثم رفعت رأسها في غمخ وكان يرى التصميم في عينيها وهو يصطحبها خارج الغارسونبيير قائلا : « أظن أن هناك علاقة ما بينك وبين كلودين ؟ » كانت تظن أنها قد فاجأته ولكنه أجاب ببساطة :

« إن لكلودين الفضل في وجودي هنا »

« ماذا تعني ؟ »

« لقد تقابلنا في نيواورليانز ودعنتي الى زيارة والديها فرافقتها الى منزلها وجاءت بي الى هنا لتقضي يوما وكانت ترسم لوحة للمستعمرة التي اشترتها فيما بعد »

ولم تستطع أن تسأله ما كان قد اشترى المستعمرة بسبب كلودين . وطرحت عليه سؤالاً آخر : « ماذا تعمل ؟ »

« أعيش . أزرع قصب السكر ويدر علي دخلا أسدد به رهن العقار وأدخل بعض الحشيشات على القصر . وهناك حديقة خضراوات تنتج طوال السنة » ولدي بقرة مدرة اللبن تعطيني عجلا صغيرا للذبح كل عام . وليست لدي رغبة في الثروة أو الجاه . هل تشعرين الإحباط ؟ »

« كلا . ولكنك من النوع الذي يمكن أن ينجح في أي شيء »

وتجنب التعليق في لياقة وفتح بابا كبيرا يؤدي الى مبنى فعل فيه الطقم فعله وهو يقول : « الأثاث هنا »

وحصر الحديث حول الأثاث وكانت أسفله تدل على أن لديه معلومات لا بأس بها . ووجدت جولي أن في وسعها الأجابة بطريقة تدل على الفهم . وخرجا من المبنى الصغير . وأحست جولي بأن شعور الألفة بينهما قد أخذ يتضاءل . كان ستيف مهذبا وساحرا ومع ذلك بدا وكأنه لا يحتفظ بأية مشاعر شخصية تجاهها . وكانت تحس بالسعادة في صحبته . وخطر لها أن نمد زراعيها نحوه لتعزم من جديد بما تقاسمه فيه من السعادة .

كان القصر يرتفع في ضخامة مطلّا على الطبيعة بحيث يرى من أية بقعة يسيران فيها . وعندما توقفا بجوار غصن يتدلى من شجرة بلوط ضخمة نظرت اليه من جديد بينما أخذت أصابعها تعبت بياقة من الطحالب وتنهذت وسألت

« أظن أنهم كانوا يعيشون حقا في ثرف وإسراف كما سمعنا ؟ » وأجاب ستيف :

« لم تكن حياتهم كلها توما ولها ولا لما استطاع مالك المستعمرة أن يحتفظ بها للعام التالي . كانوا يديرون أعمالا كثيرة في مستعمراتهم لكي يحصلوا على عائد مريح . ولو فشل الحصول عامين متواليين لفقد الواحد منهم عمله . وإذا نجح لفصول عدة متوالية فإنه يصبح امبراطورا صغيرا » ملك السكر !

وابتسمت ابتسامة أظهرت بعض الخطوط الغائرة على وجهها :

« كان ملاك المستعمرات قليلين ، ولم يزد عدد من كان يمتلك الرقيق عن ثلث السكان في لويزيانا ذلك الوقت . ولكن الأبهة والفضامة تشدان الانتباه أكثر من صراعات الفقراء التي لا طائل وراءها »

« انك تجعلني أحس بالذنب لأنني أعبر عن إعجابي بحياة ملاك المستعمرات »

وقال مبتسما : « مازلت شابة وليس هناك شيء أكثر شاعرية من أن يتخيل الانسان أيام المستعمرات الذهبية ، فالذين أقاموا كانوا أشخاصا صارمين بنوا امبراطورياتهم ونحتوها من الفقار البرية في المناطق شبه الاستوائية واستمتعوا بشمار كدحهم . وكان استخدام الرقيق بشكل أو بآخر شائعا في العالم أجمع في ذلك العصر »

« نعم ، كان الناس في انكلترا يعانون من العمل في مناجم الفحم ومن تشغيل الصبية الصغار ، وكانت روسيا القيصرية تعاني من رقيق الأرض وكان النبلاء في بلدان أخرى يمارسون صورا أخرى من الاستغلال »

« لقد ابتعدنا عن سؤالك حول ما إذا ملاك المستعمرات كانوا يصنعون حقا مقايض الأبواب في بيوتهم من الفضة والذهب ويلقون بالدولارات الفضية على الزيد خلف القارب النهري ؟ »

وأومأت جولي وقالت : « أستطيع أن أخيل مدى صدق ذلك ! »

« يمكنك أن تثقي من أن القصص حقيقية مهما بدا فيها من المبالغة . لقد كانوا مثلا عندما يصل ضيف الى البيت يوقفون الساعات طيلة وجوده ينتهم انتهاجا بالمناخ . وكان التفوق على الآخرين ليس من مظاهر الثراء والغنى داخل البيوت فقط ولكن في مظاهر الكرم لعبة يحرص عليها ملاك

المستعمرات . فعندما كان أحد العبيد يقدم مائدة الافطار لضيفه من النساء في الصباح كان يضع وردة مفتحة على الوسادة وإذا لم تستيقظ كان يضعها تحت أنفها حتى تصحو وعندئذ يقدم لها فنجانا من القهوة لينشطها فتظن الضيفة أن الوردة قد أعادت إلى روحها النشاط .

« يا لها من فكرة جميلة ! »

« وهناك واحدة من أطرف القصص عن تبذير ملاك المستعمرات وقعت قريبا من هنا . أتخمين أن تسميها ؟ »

وأومأت أنها تتحسس لذلك فأضاف : « كان السيد تشارلز دوراند يمتلك مستعمرة تطل على نهر تشيه على بعد أميال قليلة من سانت مارتنفيل . وكان نابضا بالحبوبة رزق من زوجته الأولى قبل أن تموت التي عشر طفلا وأقسم فوق مقبرتها على أنه لن يتزوج ثانية . ولكنه تزوج بالفعل قبل أن ينقضي العام وأراد أن يعدل مع امرأته الثانية فرزق منها التي عشر طفلا كذلك . وكان دوراند رجلا غير عادي . وعندما قبلت الثتان من بناته الزواج من شابين من الأسر المحلية في لويزيانا توقع السكان المحليون أن يروا مظاهر البذخ في حفل الزفاف المزدوج ، فأرسل عبيده إلى الغابات القريبة ليصطادوا عناكب كبيرة . وأطلق هذه العناكب قبل الزفاف بأيام قليلة في طريق يؤدي إلى قصر تحف به الأشجار من جانبيه . وسرعان ما تحولت الأشجار إلى شبكة من النسيج المثقب . وفي صباح يوم الزفاف خرج العبيد ومعهم منافع كبيرة ومسحوق من الذهب والفضة راحوا ينثرون فوق نسيج العنكبوت ، وبذلك تحول الطريق إلى مظلة ذات غطاء متألليء فوق رؤوس المحتفلين بالزواج . »

« وهل هذا معقول ؟ »

قالتها وهي تضحك في شيء من عدم التصديق . وأضاف :

« ولكن ماذا كان يحدث لو أمطرت الدنيا وعصفت الرياح ؟ ! »

« لا يجرؤ المطر ولا الرياح على ذلك في يوم يتخذ فيه السيد دوراند الترتيبات

الخاصة بزواج ابنته . »

قال ذلك ثم سألها في رقة :

« هل تعلمين أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بل قاربت الرابعة ؟ »

والتفت نحوه في دهشة فيما أحست بشيء من الحرج والإرتباك . لم تكن تتخيل أن الوقت قد مضى بمثل تلك السرعة وتعمرت وهي تبحث عن

الكلمات : « من الأفضل .. أن .. أن أذهب . »

وراحت تنفض الجوزلة في شيء من العصبية وهي تحاول أن تخفي وجهها من عيني اللتين كانتا تستمتعان بما يحدث . وحاولت أن تسلك طريقها إلى السيارة لكنه أمسك بمعصمها وقهقه ضاحكا وهو يجذبها إليه :

« لا يضايقني أن تبقى معي طوال الليل ، لكنني لأرود أن تضعني جوزفين في القاعة السوداء . »

وزاد ارتباكها عن ذي قبل وقالت :

« أعرف أنها تنتظر عودتي لتناول العشاء معا . »

وأكملت : « انني مسرورة كونك ذكرتني بمرور الوقت . »

« حقا ؟ ! »

وشبك أصابعه في أصابعها وهو يقول : « دعيني أرافقك إلى السيارة . »

وعندما اطمأن ستيف كامبيرون بعد ذلك بدقائق إلى أنها قد جلست في سلام خلف عجلة القيادة في الفولكس واغن الحمراء اتجنى نحوها وعانقها قائلا : « لك أن تصدقيني هذه المرة إذا ما قلت لك : إلى اللقاء يا جولي ! »

ونطق كلمتي إلى اللقاء بالفرنسية ..

رجع ستيف إلى البوابة حيث كان كلب الرعي الألماني جالسا وقد ارتفعت أذناه بينما كانت عيناها تراقبان ما يحدث . ورفعت جولي يدها محيية ورجعت بالسيارة إلى الوراء في المدخل الترابي . وعندما أخذت وجهتها على الطريق الرئيسي أدركت أن ستيف لم يذكر شيئا عن اللقاء التالي بينهما . لكن الدفء كان يحيط قلبها كان يعكس قوله أنه لا بد سيرها ثانية .

وعندما دخلت منزل لوبلان بدأت تحس بصدى مقابلتها مع ستيف كامبيرون المعروف باسم إتيان . وبدأت السيدة لوبلان باستفسارها عن مدى استمتاعها بفترة ما بعد الظهيرة مع إتيان . أما غي فوقف في المدخل يراقب في اكتئاب ردود فعل جولي على تلك الزيارة . وحاولت أن تخفف من ابتهاجها وهي تقول أن المعبود هو كامبيرون حول الذي تبحث عنه . وظلت السيدة لوبلان أن تأخرها هناك كان لذلك السبب وانتهزت أول فرصة لتصعد إلى حجرتها فستعيد نشاطها . وتبعها غي إلى الدرج وهو يقول :

« ولكن لم تذكر شيئا عن انطباعك عن الفارس ستيف كامبيرون ؟ »

وزادادت قبضتها على مسند الدرج قبل أن تأخذ أنفاسها وقالت :

« كان في وسعك أن تخدشي عن وسامته الجذابة . ثم إن ستيف وإتيان
شخص واحد . كنت أظن أنني سألتقي برجل فرنسي كبير في السن »
« وهل حدث لك ذلك ؟ »

« حدث لي ماذا ؟ »

« هل أسرتهك وسامته ؟ »

وأجاب في غموض : « لقد صدمت . ولم أدرك في أول الأمر أنه ستيف
الذي حدثتني عنه . بل لم أكن أعرف أن ستيف في الفرنسية تعني إتيان »
« كان غي ينظر إليها بطريقة تثير فيها بعض الارتباك . فقد بدا وكأنه يرى آثار
العناق في أحاسيسها ، وأضاف يسألها وهي تتجه إلى أعلى الدرج :

« هل كنت على صواب فيما حدثتك عنه ؟ »

وأجبت بشيء من الضيق لسؤاله المتطفل وامتنادت لتواجهه :

« ماذا تريد يا غي ؟ أتريد أن تستكشف ما إذا كان قد حاول اغوائي ؟ »

وهمهم غي وهو يضرب الحاجز الخشبي بقبضته :

« لم أشك لحظة أن رجلا آخر يستطيع أن يفعل بك ذلك »

وتنهدت في غضب وقالت :

« أوه .. هكذا يا غي هل تصدق حقا ما قلته الآن ؟ »

« كلا ، فإن ستيف من الذكاء بحيث لا يجازف في الكشف عن نيته في

المرّة الأولى ، ولكنني على ثقة من أنه لا بد أن يكون قد أسر بجمالك »

« لقد نشأت في مزرعة وأعرف قدرا لا بأس به عن الطيور الوديمة وعن

التعل الذي يلسع . وبعد ثلاث سنوات قضيتها في الكلية أستطيع أن أنصرف

في موقف أو آخر دون أن يؤثر في عناق عابر »

كانت تلك أكذوبة صريحة ولكن جولي كانت في حالة من الغضب

جعلتها لا تكترث . وانسم ابتسامه تعكس السخرية والاعتداد بالنفس قائلا :

« إذا فقد كنت على صواب . بدأ الحصار بالفعل »

« ولكن خطوطي الدفاعية لم تنكسر ولن تنكسر »

وخرج صوته فيما يشبه الرجاء وهو يقول :

« اسمعي يا جولي ، إنني أحاول فقط أن أحذرك حتى لا يلحق بك الضرر ،

لقد رأيت ستيف يغوي الفتيات من قبل . إنه يلجأ إلى المغازلة بعينه الواسعتين

الزرقاوين . ويتسم حتى تنهار الفتاة أمام نظراته »

ولم تفوت جولي فرصة السخرية منه وقالت :

« كنت أظن أن من يفعل ذلك هو أنت »

وتشقت أنفاسها بعمق وقالت :

« أفهم ما تحاول أن توضحه ولكنني رايدة وأستطيع أن أكون وجهة نظري

وأصدر أحكامي . وكل ما خرجت به أن ستيف شخص جذاب »

ولم تعطي لغني فرصة الرد والتفت وصعدت الدرج في سرعة ، ولكنه كان

مصرا على أن تكون كلمته الأخيرة : « وكذلك إتيان الكوبرا ! »

لم يذل ستيف أية محاولة للاتصال بها يوم الجمعة التالي وأجبت بشيء

من الاحتقار لنفسها وهي تتسكع في سائت مارتفيل ذلك اليوم ثم تعود إلى

بيت لوبلان بين وقت وآخر على أمل أن يكون ستيف قد اتصل بها رغم أنها

لم تسأل صراحة إذا كان قد ترك رسالة خاصة أم لا . ولم تكن واثقة من

مدى إعجابه بها إلى الدرجة التي تجعله يفعل ذلك . كان كل ما تحرص عليه

هو أن تهني نفسها لتطلي الدعوة .

وأشرق صباح السبت وكان كل أمل لديها بأن يتصل بها قد اختفى مع

ظلمة الليل السابق . كانت تحاول أن تقنع نفسها أن ما ذكره غي عنه كان

غير حقيقي . ورغم ذلك بقي هذا الخاطر يلح عليها في صورة شكوك تؤدي

بأوهام السعادة التي تخلم بها . وعندما اقترح غي أن يمضي اليوم معا قبلت

جولي اقتراحه في بهجة . ولحسن حظها كان هناك جمع من أصدقاء غي

ولم تكن هناك فرصة لي طرح من جديد أسئلة حول زيارتها لستيف . كان

البرنامج يتضمن جولات عدة في التنس يتبعها قضاء فترة مابعد الظهيرة إلى

جوار حوض السباحة . وكان للمجهود الجسدي وللإسترخاء الذي يتبعه تحت

أشعة الشمس الدافئة أثر كبير في إزالة التوتر عن جولي . وعندما عادت إلى

منزل أسرة لوبلان في وقت متأخر من ذلك المساء كانت تحس بالانتعاش

الكامل . لم تحاول تغيير رداء البحر البكيني بزهوره الحمراء ، وأقنعت نفسها

أن البلوزة الحمراء ذات الأكمام الطويلة كانت تكفي لتغطية الأجزاء التي

يكشف عنها رداء البحر . كانت الأسرة كلها تبدو في حالة من المرح وكان

من الطبيعي أن تشارك جولي في ذلك .

وأسرعت ميشيل إلى الطابق العلوي لتأخذ حماما وتستعد للقاء بأوجين .

وتلقى السيد لوبلان مكالمة هاتفية فيما انشغلت السيدة لوبلان باعداد العشاء

وذهب غي يبحث عن إحدى الصحف ليطلع على البرامج الاستعراضية التي كانت تعرض في لافاييت لعله يختار هو وجولي البرنامج الذي يريدان مشاهدته تلك الأمسية . وبقيت جولي وحدها في الحجرة التي كانت تخرج منذ دقائق بأصوات البهجة . وكانت جولي الوحيدة التي رأت سيارة تصعد إلى ممر السيارات ثم تتوقف قرب الباب الخلفي ، وشدها حب الاستطلاع النافذ إلى النافذة لترى من القادم الجديد . ورأت فتاة في بنطلون أبيض ضيق وملوزة حمراء تكشف عن جزء كبير من صدرها . تخرج من مقعد السائق بسرعة وعلى رأسها عصاة صفراء منقوشة تضم الكتل الطويلة من الشعر الأسود بعيدا عن وجهها لتجعله يتهدل كالشلال على ظهرها .

وتحركت الفتاة برشاقة مأكرة تجاه مؤخرة السيارة وشفتاها الحمراءوان تتحركان في سعادة غامرة ولم يكن صوتها مسموعا . وشحب وجه جولي عندما خرج من الجانب المقابل من السيارة ستيف وسار هو الآخر باتجاه مؤخرة السيارة . ونازت الذكريات . كانت كلودين آتية إلى البيت وهي التي تعتبر ستيف كاميرون ملكا خاصا لها . وكان ستيف معها يخرج الحقائق والأمتعة من مؤخرة السيارة . ووقفت جولي تراقب تبادل الابتسامات وهي غمر بالخيانة بينما كلودين تنظم الحقائق والأمتعة . وبدأ ستيف وكأنه الصبي المكلف بحمل الأمتعة في الفندق ينقل بعضها في يديه وبعضها تحت ذراعيه . كانت جولي على استعداد لترك النافذة ، ولكن المشهد لم يكن قد اكتمل بعد . ورأت كلودين تتحرك لتقف اقرب إلى ستيف وأحست جولي بشيء من الغثيان المؤلم تحرك في داخلها بعنف ولم تر أكثر ، فقد حجب الدموع عينيها . وتركت النافذة على عجل وحففت عينيها بمؤخرة راحة يدها وقررت ألا تتيح له الفرصة ليراها وهي تبكي . وحمدت الله أنه أتاح لها الفرصة لرؤية ذلك المشهد ، فلم بعد هناك أدنى شك في أن آمالها كانت بلهاء .

وأسرعت إلى الردهة حتى لا تكون الشخص الوحيد في الحجرة عندما تدخل كلودين ومعها ستيف . ووجدت غي في غرفة الطعام منحيا على الصحيفة . وتظاهرت بشيء مناقض تماما لما كان يعمل في داخلها . وسألته :

« هل وجدت شيئا مشيئا ؟ »

« نعمالي وانظري ، لعل شيئا يثير اهتمامك . »

كانت جولي تتفحص الصحيفة في اهتمام عندما سمع صوت ضحك

وأبواب تفتح معلنة وصول كلودين وستيف . وتنهذ غي ونظر إلى جولي في استسلام قائلا : « عادت ملكة النحل إلى الخلية . »

وأخذ يد جولي على مضض كبير لينجيه بها إلى الردهة . ورغم أن غي لم يد حماسا واضحة فإن حماسه والديه كانت وافية وهما يرجيان بعودة ابنتهما . ووقف غي وجولي إلى الخلف ينتظران حتى تنتهي دهشة اللقاء . وأحست جولي بارتياح لأنها كسبت بضع دقائق قبل أن تقف أمام ستيف وجها لوجه . وكان غي قد أحكم قبضة يده على يدها وجذبها لتلتصق به في اللحظة التي لمح فيها ستيف . وأحست جولي بارتياح كبير لذلك .

كانت جولي على ثقة كبيرة من أنهما لم يحدثا ما يشير الاهتمام . ومع ذلك التفت ستيف وراءه وكأنه استفاد من حاسة سادسة لديه . وبدأ وجهه بلا انفعال رغم أنه كان يخفي بعض الفكاهة تكمن في أعماق عينيها الزرقاوين في الخضراء وهو يحرق باتجاه يد جولي التي أمسك بها غي في أحكام . وسرعان ما طغت على رفتها ومضة من الخجل لم تكن تريد أن تبوح بها ، ولكنها رغم ذلك استجابت لنظرته بالجرأة وكأنها تتحداه أن يعلق . ولكنه فضل أن يترك عينيها تتفحصان زينا الرقيق مما حملها على الاحساس بانها شبه غريبة .

وقبل أن تجرد جولي الفرصة لتعبر عن ضيقها من الطريقة التي كانت عينا ستيف تتحدثان بها نحوها ، جاء اميل لوبلان يحييه بالفرنسية . واستمر الحديث بينهما بعض الوقت في اللغة ذاتها .

« هل هذه فتاتك الجديدة يا غي . »

كان للسؤال وقع حاد جعل جولي تحول نظراتها بقسوة من ستيف إلى الفتاة التي تواجها . وكانت عيناها بلونهما البني الشديد القشامة تتفحصانها باحتقار زائد . وكانت ثقة جولي بنفسها قد انكمشت عندما نظرت إلى كلودين ذات الجمال الأخاذ . كانت لها نظرات ساحرة وكانت ملامحها نحالية من أي عيب كأنها صنعت من العاج في نابين مع شعرها الأسود وحاجبيها الأسودين ورموشها الطويلة التي لم تكن لمواد التجميل أثر في جمالها الطبيعي . وكانت أفراس ذهبية كبيرة تتدلى من أذنيها الصغيرتين لتضفي عليها مظهرا غريبا كمظهر الفجر . وبدت كلودين وكأنها نبات استوائي له ازهار وأشكال ساحرة . بينما بدت جولي وكأنها زهرة من ازهار

الربيع تنصب الى جوارها.

وسمعت غي يشرح بشكل عام ظروف وجودها كضيفة دون أن يذكر أنها كانت تدفع ثمن اقامتها. ورغم كونه حاول أن يضي أهمية خاصة على شخصيتها فإنه لم يشيع احساسها بذاتها. وزاد من صعوبة الموقف أن كلودين تركت جولي وانصرفت عنها كما لو كانت لا تستحق اهتمامها، وانتهت الى ستيف مما جعل جولي تشد بقوة على يد غي الذي نظر اليها في رفق واعتذار. وهمت قائلة: « سوف أنصرف الى تغيير ملابسي ».

وكانت قد لحت في زاوية عينيها كيف كان ستيف ينصت الى كلودين في اهتمام كامل. وقال غي في هدوء وحزم: « سوف نتناول الطعام في مكان ما » ولم تستطع جولي أن تمنع ابتسامة الرضى التي ارتسمت على فمها بينما بدأت كلودين توجه اهتمامها فجأة اليها وقد أحست بعزمها على الخروج وقالت: « اهل تخرجان معا الى مكان ما ؟ » ولكن جولي تركت لغى أن يوضح الموقف. ونخلصت من نظرة ستيف التي كانت منصبة عليها.

٨ - عينان ضد الوقار

عندما عاد غي وجولي في ساعة متأخرة من تلك الأمسية، كان السكون يخيم على المنزل، ولم يكن هناك سبيل لاكتشاف ما اذا كانت كلودين في البيت أم خرجت مع ستيف. ولم تكن جولي عازمة على التحدث الى غي في ما يدور في تفكيرها. وبعد أداء الصلاة في الكنيسة صباح الأحد، أعد غي رحلة تشارك فيها ميشيل وصديقها ليذهب الأربعة في السيارة الى المنطقة الشهيرة التي تنسب الى القرصان جان لافيت، وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج باراثيريا. وكانت كلودين مائزلة في الفراش ولم يكن ثمة مجال لاصطحابها في الرحلة.

وفضلت جولي صباح الاثنين أن تذهب الى مكان بعيد. واختارت رحلة الى باتون روج. وسلكت طريقا عاما رئيسيا يقوم على أعمدة من الاسمنت المسلح عابرا مساحة تمتد نحو عشرين ميلا من المستنقعات. وخلال عودتها الى بيت لوبلان تلك الأمسية، لم تكن كلودين بين الموجودين في البيت ولكنها لم تسأل عن مكانها وظنت أنها ربما مع ستيف. كان النوم قد غانها معظم الليل، لذلك استيقظت متأخرة في الصباح التالي، وكانت تتراجع عن الدخول الى المطبخ عندما رأت كلودين جالسة مع أمها الى المائدة. ولكنها انصرفت بشكل طبيعي وصبت فنجانا من القهوة وجلست معها الى المائدة وهي تتظاهر بأنها لا تكثر لشيء. وابتسمت ابتسامة مشرقة لكلودين والسيدة لوبلان وقالت: « صباح الخير ».

واكتفت الأولى بالنظر اليها بينما ردت السيدة لوبلان التحية: « أين تذهبن اليوم يا جولي ؟ لقد كنت أحدث كلودين كي ترافقك في جولتك اليوم » وأجابت على عجل وقد لاحظت ضيقا على وجه كلودين:

« لاداعي لذلك . كنت أفكر في الذهاب الى جزيرة جيفرسون لمشاهدة
الحدائق هناك ، ولكنني أحس بشيء من التراخي بمعنى عن ذلك اليوم .
ولا أريد أن أقعد على كلودين برنامجها »

« كنت أفكر في الذهاب الى الريف اليوم لأرسم بعض المناظر ، فقد ربح
كثيرا من اللوحات التي رسمتها عن مستعمرة سنيف بالألوان المائية .

وكانت الإيشامة الغامضة التي ومضت على الشفتين القرمزيتين تقول
بوضوح تام أن كلودين كانت لديها أمور أكثر أهمية ينبغي أن تقوم بها ، بل
هي أهم بكثير من مجرد اصطحاب جولي والعمل كمرشدة لها . بينما خطر
لجولي في شيء من الحقد أن كلودين قد تمضي بعض الوقت في بيت
ستيف . وعلفت جولي في شيء من الاطراء بعدما حبست البرود الذي كانت
تود أن ترد به وقالت :

« لقد رأيت بعض لوحاتك وفي رأي أنها جميلة تماما »

وابتسمت كلودين في عذوبة للمرة الثانية قائلة :

« إن معظمها معد للتوزيع بسعر مقبول في السوق . وقليلون هم الذين
يهتمون بالأعمال الفنية الحقيقية . وقليلون كذلك الذين يفهمونها »

وأحست جولي أن موقفها كشخص عادي يقدر العمل الفني واكتشفت أن
تحتسي قهونها وهي تبسم . وقالت السيدة لويلان بطريقتها في الثروة :

« هل قلت لك يا كلودين أن جولي اكتشفت أن مستعمرة إتيان كانت في
يوم من الأيام ملكا لأحد جدانها »

« لا ، لم تذكر لي شيئا عن ذلك . إنه أمر مثير ! »

ونظرت بعينها القاضيتين الى جولي قائلة :

« وكيف اكتشفت ذلك ؟ »

وأحست جولي أن عليها أن تقوم بالشرح في روية وقالت :

« في أحد أيام الاسبوع الماضي الثلاثاء كما أظن دعاني السيد كامبيرون
الى مشاهدة مستعمرة ، ولقد جعلني أشاهد الأعمدة القائمة على الرافد واسم
كامبيرون منقوش عليها . وكان سيلفي كامبيرون ، وقد سميت هذه المستعمرة
كامبيرون هول »

« هل كانت فريشك امريكية ؟ »

كانت جولي تعرف أن الفرنسيين المقيمين في لويزيانا فترة ما قبل الحرب

الأهلية كانوا يعتبرون الاميركيين برابرة غير متمدنين . ولم يكن يسمح
لسكان الولايات الشمالية اليانكي بالانتقال الى الجنوب إلا في أضيق الحدود
حتى ولو كانوا أصلا من منطقة جنوب ماسون ، ديكسون . وكان في لهجة
كلودين وهي تسأل شيء من الاستعلاء .

« الحق أنها كانت سليلة أسرة فرنسية عريقة في القدم تنحدر من عائلة
كربولي ، وكان أبوها روبرت كامبيرون ابنا لأحد المهاجرين الاسكتلنديين ،
قتل في الحرب الأهلية دفاعا عن الجنوب ، ولقد تزوجت أمها ثانية بعد
الحرب بسنوات قليلة وكان زوجها الثاني ضابطا في الجيش الشمالي . وكانت
كامبيرون هول بيعت مديدا للضرائب »

وهمهمت كلودين في وهن : « إنها غاية في الأثارة »

وعلفت السيدة لويلان في ابتسام :

« إنها حقا مجرد صدقة أن تعود ملكية كامبيرون هول الى واحد من أسرة

كامبيرون »

وسحقت كلودين بقايا السيكارة في المنفضة وقالت :

« أنا شخصيا كنت أتمنى ألا يشتري ستيف هذه المستعمرة . كان وضعه
المادي سيئفا كثيرا الى الأحسن لو هو لم يشتريها »

واعترضت الأم قائلة : « كيف تقولين ذلك ؟ إنه مكان جميل ! »

وعلفت كلودين : « لن يستطيع اصلاحها إلا مصرف كبير مثل المصرف
الوطني . عل لديك فكرة عن المبالغ المطلوبة لإصلاحها ؟ كان بإمكان ستيف
أن يحتفظ بشيء من الثروة لو أنه لم يهدر النقود في اصلاح ذلك المكان كي
يجعله صالحا للسكن . ونفقات صيانة مثل هذا المكان لا تحتمل »

وأحست جولي بشيء من الامتارة لسماعها رأي كلودين في المستعمرات
واقترحت في هدوء :

« أعتقد إن بإمكانه جعلها مزارا للسياح بعد أن يكمل ترميمها وبذلك

يستعيد بعض ما أفقده عليها »

وأجابت كلودين بطريقة لاذعة : « ما أكثر المستعمرات القديمة في الجنوب
! والمجد أو كامبيرون هول أو أي اسم تريد أن تسميها به لا تتفوق على
العشرات غيرها في شيء ، بل أقول إن مستعمرة كامبيرون هول لا يمكن أن
ينجب إليها أي معلم من المعالم التي تركها جيش الاتحاد وتجذب الزوار اليه »

واحتفظت جولي بهدوء في صوتها وهي تقول :

« أعتقد أنك لابد أن تقضي إلى جانب الرأي القائل بترميمها »

ولم يخب في عيني كلودين القاتنين وقالت :

« أنا لست حريصة على أن أعيش الحياة التقليدية التي يعيشها الفنان ولا أريد أن أقبع في مرسم . إنني أريد بيتا حديثا أو شقة جميلة ، فهي أفضل بكثير من مستعمرة لم يكتمل ترميمها وتنتشر فيها البرودة والرطوبة »

واعترضت السيدة لوبيلان فرفضت يديها في الهواء وقالت :

« إنها تحدث هكذا دائما وتترك عقلها يتحكم في عواطفها »

ونهضت كلودين عن المائدة وحملت فتحاتها الخالي إلى الحوض قائلة :

« إن قرص الأسيرين يعالج الصداع ياماما . ولكن بالذم الذي يعالج وجع

القلب ؟ »

كانت جولي حريصة على أن تسمع الإجابة عن هذا السؤال الذي لم تكن كلودين تعرف له جوابا . فقد تحتاج هي إلى العلاج الذي لم تستطع أن

تخلص من ذكرى ستيفن كامبيرون بسرعة . وما أن خرجت كلودين من المطبخ حتى انتشلت أمها بنشاط كبير . واحتست جولي قهوتها وعادت إلى

حجرتها محاولة أن تضع خطة لليوم الطويل المقبل عليها .

كانت الشمس تفرق الفراش وقد ثثرت أشعتها الذهبية على الجسد النائم ، وأخذ طائر يردد صيحة اليقظة الصحو من خارج النافذة مما جعل جولي

تتململ بعض الشيء . وراح جفناها يتغيضان في وهج الشمس الذي حاول أن يكتسح استغراقها في النوم ، وأحسبت بعطر زهري يداعب أنفها لعلها

تستيقظ . وتنهدت وحاولت أن تختلس النظر وبدأت تدنو من وسادتها التماسا للدفع لحظات أخرى قليلة ولكن تلك النظرات القصيرة جعلتها ترى شيئا لم

تكن تتوقع أن تراه . وغضض جبهتها خط واضح وهي تفتح عينيها في انبعاث وتحديق في شك إلى الوسادة المجاورة لرأسها . كانت هناك وردة متفتحة تستقر

على غطاء الوسادة الأبيض وحمرتها القانية تتباين في خدة مع اللون الأبيض . وأخرجت يدها في تضاؤل من أسفل الفراش وهي تتوقع أن تختفي الوردة من

أمام عينيها . ولست أصابعها القرع الدقيق الذي يحملها ، وادركت أنها الحقيقة . وانهضت من الفراش فجأة لتفرق أنفها في وريقاتها الأرجوانية

الضاربة إلى الحمرة .

كان هناك خاطران يلحان عليها في آن واحد : حديث ستيف عن العادة

القديمة لدى ملاك المستعمرات في إيقاف الضيوف بعطر وردة ، ودخول شخص غريب إلى الحجرة . وامتدت يدها تشد الأغطية التي كانت قد تدلت

لتغطي البيجامة الرقيقة التي ترتديها . ولطت شيئا في المنطقة القريبة من النافذة . كان ستيف يتفحصها في صمت ، وكانت يدها تضربان على فمه .

وسقطت يدها إلى ذراعي الكرسي ، وهو ينهض على قدميه وتنشفت أنفاسها ، وهي تحس بالحاجة الشديدة إلى التنفس . وسألته :

« كيف دخلت إلى هنا ؟ »

« من الباب »

كان يستند إلى عمود السرير ولم يبد عليه أي شعور بتأنيب الضمير للطريقة التي كان ينظر بها إليها . ولأنه الموقف الحرج الذي كانت تعانيه وقالت :

« كيف تدخل إلى هذا المكان ؟ ماذا لو اكتشفت ذلك السيدة لوبيلان ؟ »

« إنها ليست هنا ، ولقد وجدت ورقة تركتها لك في الطابق الأرضي ويبدو أنها ستقضي فترة الصباح كلها في الخارج »

« ولكن لماذا أنت هنا ؟ »

كانت جولي قد بدأت تحس بالسخف شيئا ما وجذبت الأغطية باليد الأخرى وأجاب : « لقد أحسست بأنك تحاولين أن تتجسسيني »

« هذا تفكير خاطيء »

ولم تستطع جولي أن تواجه عينيها . « إنني سعيد لسماع ذلك »

وشاعت في وجهها ابتسامة لها سحر أسر وتابع يقول :

« إنك تبدين جذابة للغاية كأول شيء في الصباح ، هل تعرفين ذلك ؟ إن كل ما فيك رقيق »

واحمرت خجلا بشكل عامر ، وهي لاتعرف كيف تجيب على ذلك التعليق . ولم تجد ابتسامة ستيف الرقيقة العريضة في مساعدتها على الرد بل

أحسست بالغضب عندما وجدته يعبر الموقف مضحكا . « والآن .. وقد اقتنعت بأنني لأحاول أن أنتجيك ، أرى أنه من الأفضل أن

تترك غرفة نومي »

وجعلته يلمس شيئا من غضبها « لماذا ؟ هل تخشين أن أنسلق إليك ؟ »

وهمست قائلة : « أنك لا تجرؤ على ذلك »

وأجاب في صوت واهن : « رجيما »
 وتوقف ستيف لحظة قبل أن يدبر محرك السيارة ونظر إليها في صمت ثم
 قال : « إذا وعدت بألا تتركني هاتين العينين البنيتين التاعمتين تسجراتني .
 إنهما جديرتان بأن تفقد أي رجل مابقى لديه من الإثزان »
 والتفت جولي بعيدا وهي حائرة في ما إذا كن يعرف مدى خطورة عينيه
 الزرقاوين القاتمتين وأنها كم تمت أن تفرق نفسها في أحضانها . ومع ذلك
 كانت تشعر بشيء من الاستشارة إذ اكتشفت أن فيها شيئا يثير أرقه . ولكن
 هل كان ذلك الشيء سلاحا فعلا أم مركزا للهجوم ؟ وهي تعلم أن خطورتها
 الدفاعية واهية . وعندما استدار ستيف بالسيارة نحو الاتجاه المضاد والمقابل
 لسوق مدينة مارتيفيل نظرت إليه جولي في استغراب وقالت : « إلى أين ؟ »
 وغض النظر عن الطريق لحظة لينظر إليها مطمئنا وقائلا : « إلى نيو ايبيريا .
 أعتقد أننا سنجد هناك تشكيلة أكبر من أقمشة التنجيد لنختار منها إلى جانب
 ما نمتنع به من مناظر جميلة . هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟ »
 وأجاب وهي تذكر كيف كانت رحلتها السابقة ثقيلة بعد الحديث غير
 المريح مع كلودين في ذلك الصباح : « لقد ذهبت إلى مستعمرة تسمى
 الأشباح على نهر تشيه . كنت هناك بالأمس »
 « وهل أعجبك المكان ؟ »
 « أوه ، نعم ! كان جميلا للغاية وخاصة المروج الخضراء المطلة على الرافد
 . ولقد لاحظت كذلك أن واجهة المنزل تطل على الطريق لا على نهر تشيه »
 وحاول ستيف أن يفسر ذلك فقال : « ذلك لأن القافلة الأسبانية كانت تمر
 من هناك مما جعلهم يمسكون التخط العادي »
 وسألها : « وهل خرجت إلى جزيرة أفري ؟ »
 وهزت رأسها قائلة : « لا »
 « حسنا . سوف نذهب في السيارة إلى هناك بعد وجبة الظهيرة »
 وعاد يوجه انتباهه إلى الطريق . ووجدت جولي نفسها تمتد إلى مقعدها في
 قناعة ورضا . كانت تحس ببهجة عارمة وهي تجلس في مقعدها إلى جانب
 ستيف وتعلم أنها ستعطي التهاركله معه وتحت تصرفه . ولم يكن ستيف
 يعرف ماذا يعني لها الوقت الذي يقضيه معها .
 ووجد في المتجر الثاني الذي دخله في نيو ايبيريا خامة القماش التي كانت

جولي تريد لها للأريكة والكراسي . كانت من الخمطل الناعم الأخضر الفاتح ،
 تنسجم تماما مع خشب الجوز الفاتح . وليسو الحظ لم تكن هناك كمية كافية
 لقطع الأثاث الثلاث . وأكد المشرف على المحل أن في وسعه أن يستحضر لهما
 ما يطلبانه من هذه الخامة مع الطرود الأتية .
 وقالت جولي موجهة الكلام إلى ستيف بلهجة مطمئنة :
 « أفضل أن تنتظر حتى يصل القماش الجديد فمن المحتمل أن تختلف درجة
 اللون »

ووافق ستيف وقال : « أنت على صواب »
 وصحب ستيف جولي إلى السيارة ثانية بعدما تأكد من أن الشحنة المقبلة
 من القماش ستصل في أقل من أسبوع . ونظر ستيف إلى ساعته وقال :
 « لازالت أمامنا ساعة حتى يحين موعد وجبة الظهيرة . ولكن بما أنك لم
 تفطري فلماذا لا نأكل الآن ؟ »
 واعترفت جولي قائلة : « بدأت أحس بالجوع »
 « إذا كنت تحبين الطعام المكسيكي فإني أعرف مطعمًا يقدم وجبة شهية
 من تلك الأطباق »
 « فكرة عظيمة »

كان مطعم رافيل صغيرا يقع في أحد الشوارع الجانبية وبدت زخارفه من
 الداخل مزيجا من البساطة والأناقة توحى بنحو كلاميكي . وما كادا يجلسان
 إلى أحد الموائد حتى دخل إلى الصالة رجل ذاكن البشرة كبير السن ، وما أن
 لمح ستيف حتى أشرق وجهه بابتسامة وخطا نحوهما يتהל قائلا : « إستان ! »
 وأبعهما بفيض من الحديث في الأمسية لم تستطع جولي أن تدرك
 مضمونه واستطاعت أن تفهم أن كلمة إستان هي إستان . وعرفت كذلك أن
 الرجل الذي يادها بالتحية هو رافيل صاحب المطعم . وأدركت كذلك أن
 ستيف كان يتردد على مطعم رافيل كثيرا . وقام ستيف بالتعريف قائلا :
 « رافيل .. هذه هي مس جولي سميت . إنها تمضي اجازتها هنا في
 لويزيانا »

والتفت إلى جولي : « أود أن أقدم لك رافيل الفاريز وهو صديق حميم لي »
 ومدت يدها إلى الرجل الأكبر سنا تقول : « يوم طيب يا سنيور الفاريز »
 قالتها بالأسبانية وانحنى الرجل برشاقة على يدها وهو يقول :

« أوه .. هل تتكلمين الأسبانية يا سنيورا ؟ »
 وأجاب جولي : « إنها مجرد تخيلات أهلا وسهلا .. وداعا كيف حالك ؟ »
 وابتسم السنيور الفاريز في اكتساب وقال : « للأسف أنها لغة جميلة
 للمحبين ، ينبغي أن يقوم إستان بتعليمك هذه اللغة »
 والقت عينها على ستيف الذي كان يرقبها في سرور نظرة ذات معنى وهو
 يقول في الأسبانية : « أنه أستاذ حاذق »
 وتدخل ستيف ليمنع التصادم في الملاحظات الشخصية وأخبر رافيل عن
 الأصناف التي يفضلها للوحة الخفيفة . ولم تهتم جولي كثيرا بأن تختار شيئا
 وتركت ستيف يختار لها بينما أخذت أفكارها تشرذم ، وعندما غادر رافيل
 المائدة قال ستيف : « تدين شاردة ! ما الذي يضايقك ؟ »
 « كنت أؤمن أنك تتكلم الفرنسية بطلاقة . والآن تتكلم الأسبانية »
 « هل يدفعك حب الاستطلاع ! »
 « نعم ، أعرف الآن أنك تمتلك مستعمرة . ولكن قبل ذلك لابد أنك
 تعلمت تلك اللغات المختلفة قبل أن تأتي إلى هنا . إنني أحاول أن أتخيل : ماذا
 كان عملك السابق ؟ »
 « لقد عملت ضابطا على سفينة شحن غير نظامية مدة أحد عشر عاما »
 « وماذا تعني سفينة شحن غير نظامية ؟ »
 « أنها السفينة التي ليس لها مرفأ ثابت . فقد تحمل شحنة الحبوب من
 نيواورليانزا إلى اليابان مثلا ، ومن هناك قد تحمل شحنة إلى الهند وهكذا .
 وقد تمضي على السفينة عامان أو ثلاثة قبل أن تعود إلى الميناء نفسه »
 « وهذه هو السر في أنك تعرف لغات عديدة ؟ »
 « الواقع أنني أتكلم أربع لغات إلى جانب الانكليزية . إنها الايطالية والألمانية
 فضلا عن الفرنسية والأسبانية »
 ونظرت إليه جولي باستغراب من خلال رموشها وهي تقول :
 « قلت أحد عشر عاما . لابد أنك كنت صغير السن للغاية ! »
 « كان عمري سبعة عشر عاما وكنت يتيما ولم يكن لي أقارب من الدرجة
 الأولى أو الثانية . وشدني حياة البحر المليئة بالمخاطر والشاعرية . كنت في ذلك
 الوقت أعيش في الشمال في بوسطن وحلمت بالهروب إلى جزيرة في البحار
 الجنوبية ، وترددت على أوصاف شحن السفن عدة أشهر قبل أن يرفق بي قبطان

تلك السفينة غير النظامية ويقبل قيدي ضمن طاقم سفينة وعاملني كأب ولم
 تكن له نفسه أسرة . وظللت أبحر معه حتى توفي منذ حوالي خمس سنوات »
 « وكان ذلك ، هو التاريخ الذي قدمت فيه إلى هنا ؟ »
 « لقد عدت إلى الولايات المتحدة وانتهى بي المطاف في نيواورليانزا حيث
 قابلت كلودين . كنت قد مللت التجول بالرغم من أنني عشقت حياة البحر »
 وومضت عيناه نحوها عبر المائدة وقال :
 « هل تريدان أن تسمعي المزيد عن الماضي السيء ؟ ! »
 « حسنا لقد أغفلت ذكر الفتيات اللاتي تعرفت بهن في الموانئ المختلفة »
 وظهرت على وجهها ابتسامة تعذبه بأثارة رغبة فيه لا تعترم أشباعها
 وواصلت
 « لابد أنك خلقت وراءك صفا من القلوب المنكسرة يمتد من أقصى
 الأرض إلى أقصاها »
 « لن أحدثك عن النساء اللاتي كنت أقابلهن من فئات لا تعرف معنى
 انكسار القلب . على أن النساء المحترمات لا يترددن على الأماكن التي
 يقصدها البحارة للمتعة »
 وابتسمت جولي في اشراق عندما اقترب الغارسون ومعه الطعام وقالت :
 « لقد كنت على صواب إلى حد ما عندما شبهتك بالقرصان إياه . سوف
 يبدو عليك أكثر رونقا »
 « لا أعرف . وعلى أي حال فإن الفتاة لا تليس قرطا واحدا في إحدى
 أذنيها ، والأفضل أن تحتفظ به كتذكارة »
 وسألها ستيف في هدوء :
 « ألا تريدان تذكارة عن الوقت الذي تقضيه سويا ؟ »
 وأخذها السؤال على غرة فأجابته في حدة : « لا »
 كانت تعرف تماما أن ذكرياتها مع ستيف تظل حية دون تذكارة . وحاولت
 أن تبدل حديثها إلى مرح ، ولكن ذلك لم يخل من زيف وعصية .
 قالت : « أرجو أن تحتفظ به لفتاة أخرى قد تبدو في زي أكثر جمالا مثل
 زي الغجر »
 وهز ستيف كتفيه في شيء من عدم الاهتمام وركز على الطعام وهو
 يقول : « قولي ما يحلو لك »

٩ - هناك قمر في مكان ما

كان المساء حالك المواء عندما استأنف ستيف وجولي رحلة العودة بالسيارة. وظهرت في المساء نجوم قليلة، ولم يكن للقمر أي أثر رغم أن جولي كانت تقول أنه لا بد أن يكون هناك في مكان ما. وتجمعت قطع ضئيلة من الضباب على هيئة سحب رمادية فوق المستنقعات الممتدة على طول الطريق لتسج بين الحين والآخر ستارا يشبه تسج العنكبوت يظفر في الجو ليجري مثغا كالدوامة أمام السيارات المارة وكأنه ضباب راقص. وكان ذلك بالنسبة الى جولي جزءاً من سحر اللحظة الأثرية التي تعيشها وهي الى جانب ستيف. وما أسرع ما مضى الوقت. فقد توقف ستيف في سيارته عند المنعطف المواجه لبيت آل لوبلان، ولم ينطق أيهما بكلمة بعدما أوقف محرك السيارة. لم تكن جولي في عجلة من أمرها لتسرع بالدخول، ولم يكن ستيف في نفس الوقت يستحثها على ذلك. وأشعل سيجارة، وبدا وجهه في ضوء عود الثقاب وقد برزت ملامحه برورا حادا وامتد الصمت بينهما وجاء صوت صرصار الليل في الخارج يتردد على مقعدها، وأخذت تخلق في وجه ستيف الذي اعتلته بعض القتامة. ونتمم ستيف في شيء من العصبية، وقال: « شيء لا يطلق.»

ونفض السيجارة من النافذة بحركة مضطربة والتفت نحو جولي فهيمت وهي لا تدري إذا كان قد صدر عنها ما أثار غضبه. وقالت: « ماذا يضايك؟ »

وامتدت يده لتمسك بحول رقبتها في قبضة مؤلمة، وقال: « انت.. لم يحدث أن قيل لي قبل ذلك أن... »

ولم تنح لها الفرصة لتتصت الى ما كان ينوي قوله. إذ سارع الى غانقها فيما كانت يده تضغط عليها بقوة في مقعدها بحيث لم تستطع أن تقترب منه، ثم قال: « لا أريدك أن تدخلين.»

واجابت وصوتها يضطرم بالانفعال الذي أثاره فيها: « لا أريد أنا أيضا ذلك.»

وحقق فيها من خلال الظلمة التي تغمر السيارة: « أنك لا تدركين ما تقولين. من الأفضل أن تدخلين الآن.»

وأضاف مؤكدا: « سوف.. سوف أتصل بك غدا.»

وفتحت باب السيارة. واشتعل الضوء الداخلى آليا. وحدثت فيه قبل أن تخرج وحثت الرغبة في عينيه وهما تنظران اليها. وكادت تغلق الباب من جديد لتستقر بين ذراعيه. لكن العقل والحذر سيطرا عليها، واتسلت من السيارة واتجهت الى البيت بسرعة.

كان البيت هادئا فيما عدا صوت موسيقى مكتومة آتية من جهاز تسجيل من حجرة الميمنة، ففرت أن شخصا آخر كان هناك. ولم تكن جولي تود أن تقابل أيا من أفراد الأسرة حتى لا تضطر الى إعادة سرد أحداث اليوم. كانت تريد أن تحتفظ لنفسها بتلك اللحظات فترة أطول. ولذلك تسللت تصعد الدرج الى حجرتها. وتركت باب الحجرة مفتوحا، واجازت لتشعل المصباح الأرضي. وعندما قفلت راجعة لتغلق باب الحجرة رأيت كلودين تقف عند المدخل. كان شعرها الأسود يتهدل على كتفيها، وكانت تلبس قميص نوم لونه أخضر في زرقة غريبة ذكر جولي بربش الطاووس وبرز من تحته قميص قصير ينسجم معه. ونظرت الى جولي تقول: « لقد رجعت إذن! هل استمعت بنزهة قصيرة مع ستيف؟ »

واجابت جولي في هدوء وهي تحاول ألا تتيح الفرصة امام كلودين للاستمرار في التحدى: « لقد أمضيتنا معا وقتا سعيدا للغاية.»

« لا بد أنك جعلته يخضع لمشيتك في التجول في تلك المناطق السياحية.»

« الحقيقة أن ستيف اقترح أن أزور جزيرة أخرى غدينا الى هناك بناء على

« سبق له أن زار آفرى مرات عدة. أنها لمعجزة أنه لم يفسد من هذه الزيارة بشكل يفقده صوابه. »

وأجاب جولي وابتهامة خفيفة على وجهها أشعلت نار الغضب في عيني كلودين القاتمتين: « لأعتقد أنه ضجر على الإطلاق. »

واستدارت جولي تلتقط فرشاة شعرها وهي تأمل أن تفهم كلودين من خلال ذلك أنها لا تريد الاستمرار في هذا الحوار. ولكن كلودين تشدقت من خلفها قائلة: « أرجو ألا تحسب أنه يهتم بك بالفعل. فأنت خاة تنقصها الخبرة وربما تجلبين لنفسك الضرر. »

« أعتقد أنني في سن يتبع لي أن أعرف كيف أحافظ على نفسي. »

« رجولته يمكن أن تصبح مسيطرة. ولقد وقعت في حباله من قبل نساء أكثر نضجا منك. »

ونظرت جولي في سذاجة إلى كلودين، وقالت:

« وهل كنت أنت واحدة منهن ؟ »

« أنني أكثر من غيري خبرة واحتمالا، وأعتقد أنك تضعين نفسك في موقف لم تنضج له بعد. »

« هذه مشكلتي أنا. أليس كذلك ؟ »

وأجاب كلودين في حدة: « بالطبع. كنت أحاول أن أقدم اليك نصيحة ودية صغيرة. ولكن إذا كنت تفكرين في قضاء وقت سعيد من اجازتك بدون أن تتورطي. فاستمعي بوقتك ولن تجدي أفضل من ستيف ليحقق لك ذلك. ولكن تأكدي من أنه لن يقبل الارتباط أبعد من ذلك. »

وعلمت جولي: « أعتقد أن ذلك سبب لك شيئا من الكدر. »

وبدا الغضب المكبوت على وجه كلودين وقالت:

« ستيف رجل ككل الرجال، ويجد في رفقتي ما يشبع تطلعاته. »

وعلمت جولي للمرة الثانية: « تستطيع أي امرأة أن تفعل ذلك. »

كان الحديث بينهما قد تطور بشكل سريع انكشفت معه في وضوح كراهية كلودين لجولي. وقالت في تحد:

« لتكلم بصراحة. قد أجد في سذاجتك شيئا من التسلية الآن. ولكن الأمر لن يستمر هكذا فاما أن يتجح في غوايتك وعندئذ تفيقين على الحقيقة أو أن

يشعر بالملل منك وعندئذ يهجرك تماما. وأنت بالنسبة إليه مجرد ذكرى عارضة، وسوف تدركين ذلك بنفسك. »

واستلت جولي « مخاليتها لثرد قائلة:

« قد تكونين على صواب ولكن ألا يمكن أن يكون قد بدأ يحس فعلا بالضجر من البضاعة المستعملة وقد يكون بحاجة الآن إلى أن يجرب شيئا جديدا تماما يستطيع أن يشكله بما يتمشى مع تطلعاته ؟ »

وارتفعت يد كلودين مهددة وظنت جولي للحظة أنها أرادت أن تصفعها، ولكن كلودين تراجعته وانجذبت نحو الباب من دون أن تغادر الحجرة. واستدارت نحو جولي لتقول في احتقار:

« انك تركيبين غلطة كبيرة. »

وغادرت الحجرة. وأخذت جولي تمنع التفكير وحدثت نفسها: لقد كسبت الجولة الأولى.. ولكنها الحرب الآن.

كشفت كلودين الثقاب عن مشاعرها، ولم يكن واردا لدى جولي أن تراجع أمام أي شخص. وكان اليوم رائعا رغم ما يمكن أن يأتي به الغد من متاعب، ولم تكن تريد أن تشغل نفسها الليلة بما يمكن أن يحدث غدا. وعندما وضعت رأسها على الوسادة كان كل ما تفكر فيه هو السعادة المنتشية التي تحس بها وهي بين ذراعي ستيف. ولم تكن تريد أن تترك لسان كلودين اللاذع الحفود يورق أحلامها.

استيقظت جولي باكرا في الصباح التالي، وارتدت ثوبا أبيض اللون زاهيا تزينه بعض الأزهار البرتقالية والصفراء، وحذاء خفيفا برزت منه أصابع قدميها. واستخدمت بعض الماكياج البسيط وألقت نظرة على المرأة فكانت راضية كل الرضا. وراحت تردد نغمة مرحة وهي تهبط الدرج إلى المطبخ. كان كل ما قاله ستيف أنه يتصل بها اليوم وإن لم يذكر شيئا عن اعتزامه مراقبتها إلى مكان معين، ولم يذكر كذلك شيئا عن الوقت الذي يتصل فيه: هل هو الصباح ؟ أم المساء ؟ وكانت على استعداد للاستجابة لأي شيء.

وجلست السيدة لويلان وميشيل وعي إلى مائدة الطعام الصغيرة، فيما كان اميل لويلان قد خرج. أما كلودين فلم تكن قد استيقظت بعد ولم يؤثر ذلك في جولي إطلاقا. وبدت السيدة لويلان كمعادتها منتهجة.

وكانت سعادة جولي الغامرة تتناسب تماما مع السحرة المشرقة التي قابلتها

بها . وأوما غي إليها لإعانة مقتضية بدا فيها شيء من الاكتئاب والانهام .
لكنها تجاهلته وراحت تصب لنفسها قنجانا من القهوة ، وجلست على
الكرسي الشاغر عند نهاية المائدة .

وعلفت ميشيل وقد بدت في عينيها نظرة سليطة التجهت إلى جولي ثم إلى
أحبها وهي تقول : « لقد تسلت إلى فراشك الليلة الماضية دون أن تقصي
علينا شيئا من مغامراتك بالأمس »

وعلفت السيدة لوبلان : « صحيح يا جولي . حدثنا أين أخذك إتيان ؟ »
وظل غي يحدق في فئجانه بالكشاك وبدايت جولي تقول :
« لقد ذهبنا إلى جزيرة أفرى »

وراحت تنقل اليهم انطباعاتها عما رآته وهي تتجنب أن تركز شيئا من
الحديث حول الذي كان يرافقها .

وتحمست السيدة لوبلان خلال الحديث فقالت :

« ما أجمل هذه الحداث في شهر آذار (مارس) عندما تزهو الأزاليا
والكاميليا ! عند ذلك تزين ألوانا عديدة وزهرا كثيرة في كل مكان »
وعلفت جولي قائلة : « إن أجمل ما في حداثي الغاية أنه ليس من
الضروري أن تكون الأزهار متفتحة لكي يستمتع الزائر بالمكان . وبالطبع فهناك
أزهار عديدة متفتحة على مدى أشهر السنة . ولقد كنت حريصة على زيارتها
مهما كلفني ذلك »

واستمعت السيدة لوبلان وقالت :

« انني لسعيدة كون إتيان اصططحك إلى هناك »

وقطع غي صمته الذي فرضه على نفسه وقال :

« ولكن كلودين ليست كذلك »

ونظرت السيدة لوبلان إلى ابنها في استغراب وقالت :

« لماذا تتضايق كلودين من ذلك ؟ »

وهز غي رأسه في يأس قائلا : « لا يعقل أن لا تعرفي السبب ! »

وردت السيدة لوبلان في تأكيد : « اذا كنت تحاول أن تقول أن هناك شيئا
جادا بين إتيان وكلودين فأنت مخطيء . انهما يعرفان بعضهما البعض منذ
أمد بعيد ، أربع سنوات خمس سنوات ؟ ولقد كان هذا الوقت كافيا
لاستكشاف اذا كان ما بينهما يمكن أن يؤخذ بجديده أم لا . ألا ترى أن ما

مضى من الوقت بين إتيان وكلودين كاف لأن يعبر هو عن اعترانه الاقتران
بها ؟ أعتقد أن ما بينهما مجرد صداقة لا أكثر »

وابتسم غي ونظر إلى أمه في شيء من الأسف قائلا :

« أنك تعتقن أفكارا محافظة للغاية »

وأومات قائلة : « ربما ولكن عندما يضع الرجل خاتم الزواج حول أصبع
المرأة فذلك يدل على أنه جاد . أما قبل ذلك فهو شيء من العبث . أعتقد أن
ما يضايقك هو كون جولي هي التي كانت مع إتيان . وكنت تود أن تكون
أنت من أمضى اليوم مع جولي »

وعلق غي قائلا : « ربما تكونين على صواب في ذلك »

كانت السيدة لوبلان على استعداد لمتابعة الحديث في هذا الموضوع .
ولحسن الحظ دق جرس الهاتف في الصالة ، فأسرع نبض قلب جولي توقعا
لما قد تأتي به المكالمة . ونهض غي عن المائدة قبل أن يتجد أي من شيفيتية
الفرصة للإجابة وقال : « سأرد على المكالمة »

ونظرت ميشيل إلى ساعة الحائط وتنهت قائلة :

« أرجو أن يكون المتحدث ناظر المدرسة فيبلغني أن ماسورة المياه قد انكسرت
وأن المدرسة غارقة في المياه . إنني لا أريد أن أرى هؤلاء الأطفال اليوم »

قالت ذلك وهي تتجمع أروافها استعدادا للخروج وواصلت : « أعتقد أن
المعلمين يتطلعون إلى نهاية الأسبوع بشوق أكثر مما يتطلع إليها التلاميذ »

وجاء صوت غي معلنا : « جولي ، الخابرة لك »

وتعصمت معتدرة وهي تغادر المائدة . وأمسكت الساعة قائلة : « آلو »

وكانت تعرف أن المتحدث كن يكون سوى ستيف وأجاب ستيف :

« صباح الخير . هل تمت جيدا الليلة الماضية ؟ »

وضحكت في غصية وقالت : « لم أدر بنفسي اطلاقا »

« هذا حسن . أما أنا فلم تغمض لي عين »

« آسف لذلك »

« حقا ؟ ولكن هذا لا يساعد كثيرا في العلاج »

وأجاب جولي : « أعرف ذلك »

وتابع ستيف : « لقد اتصلت بك لأخبرك أنني مشغول اليوم ، فقد تعطل
أحد الجرارات الخاصة بالمزرعة أمس ، ويجب أن أذهب إلى لافاييت لأشتري

بعض قطع الغيار . وسوف أمضي جزءا كبيرا من النهار وربما الليل لكي
أكمل إصلاحه .

وعلمت جولي وهي تحاول أن تخفي ما أحست به من إحباط :
« على كل حال لم تكن لدينا خطة محددة ولم يكن بإمكانك أن تتبأ
أمر بما كان سيحدث للجرار اليوم »

وجاء رد ستيف معبرا في صديق عن أسفه : « إنني أيضا أحس بالأسف يا
جولي ، فما خططت اليوم أثناء إنشغالي بإصلاح الجرار ؟ »

وأجاب في جراءة : « سأجلس لأفكر فيك »
وهمهم في قسوة وسخرية :

« إن أي تعليق آخر مثل هذا قد يجعلني أغبر رأبي وأهمل الجرار »
« هل تعد بذلك ؟ »

قالت في جراءة وواصلت : « إنني أراجع عما قلت . وعلى كل حال فأنا
أهتة مزارع وأفهم جيدا أهمية إصلاح الجرار »

« شكرا يا حبيبتي ، وإذا ربما إلى الغد »
« نعم ، إلى الغد »

وبعدما أغلق الخط أعادت جولي السماع إلى مكائنها واستقرت يدها عليها
لفترة قصيرة كما لو كانت بطريقة لاشعورية تطيل حديثها مع ستيف .
وسمعت صوت خطوات تقترب نحوها واصطنعت ابتسامة على وجهها ،
والفتحت لتجد غي يحدق فيها وعيناه تعكسان شيئا من الشك والضيق . وقال :
« في وسعنا أن نلعب بضعة أشواط من التنس عصر اليوم إذا كان لدينا وقت
يسمح بذلك »

« إنني على استعداد »

قالت في هدوء وهي تأمل أن تكفر عن ذنب كانت تحس به إزاءه ، ومع
ذلك لم تكن تستطيع أن تنكر أنها وقعت بالفعل في حب ستيف وأن غي لم
يكن بالنسبة إليها أكثر من صديق ، وشرع غي في الإجابة لم توقف وأغلق
فمه بإحكام واتجه نحو الباب الأمامي وهو يوميء برأسه . وبدت جولي وكأنها
لم تتأثر بالكأبة الواضحة على وجه غي ولا بالخبر الذي سمعته من أنها لن
تري ستيف اليوم . فلقد عززت المكالمات الهاتفية أملها في أن ستيف كان
يريدها أن تكون معه . وهذا أيضا أسفه الواضح لعدم تمكنه من رؤيتها وكان

ذلك في ذاته نوعا من المواساة .

عندما حان وقت العصر كان غي قد تخلص من شعور الكأبة الذي سيطر
عليه واختفى التوتر الذي انتاب جولي عندما اطمأنت إلى تصرفه الذي كان
يعكس ارتياحه . وبعدما لعبت شوطين انتصر فيهما غي بنقطة قليلة حضرت
مجموعة صغيرة من أصدقاء غي ، ولم تعد جولي مركز اهتمامه . فقد غت
تعلقه بفتاة جذابة شقراء ، وشاركت جولي في بعض أشواط التنس الأخرى
الفردية أو المزدوجة كانت تمنى بعدها أن تعود إلى البيت . ولكن غي كان
يتلصقا في ذلك رغم أن من في المجموعة أبدوا ميلا إلى الانصراف .

وكانت جولي تريد أن تذكره بأن موعد العشاء قد حان ، ولكنها خشيت أن
يضاهقه ذلك . وأخيرا انفرط عقد المجموعة عندما لاح الشفق القرمزي ،
وصحب غي جولي على مضض إلى سيارته وحاول أن يعتذر فيها عن سلوكه
فقال : « لقد استعرت عبارة من ستيف سمعتها منه فيما كان يبيع كلودين
قائلا أنه لا توجد امرأة في حياة أي رجل لا يستطيع امرأة أخرى أن تجعله ينساها
وأخذت جولي تسائل نفسها : « هل يعتقد ستيف ذلك حقا ؟ »

وأحست بشيء من التلهع يعتصر قلبها . هل يهتم بها ستيف حقا ؟ هل
كان عناقها لها يعكس شعوره الحقيقي بالحب نحوها ؟ وكان ما يثير ذعرها
أنها سمعت ستيف يقول لها أن الزواج شيء لا يفكر فيه . بل لقد أنكر مرة
وجود ما يسمى الحب . ولعله لو عرف أنها قد وقعت في حبه بالفعل لابتسم
وقال لها أنها سوف تشفى من ذلك الحب .

واستعرضت في خاطرها الحياة التي يعيشها ستيف وظلت أنه من غير
المحتمل أن يكون قد أحس أو شعر في أي نوع من الحب . لقد تيم في سني
مهده الأولى وأمضى شيايه في البحر متنقلا من ميناء إلى ميناء . ولم يألف أن
يكون له مستقر على هيئة بيت ، ولم يكن غريبا أن ينجذب إلى كامبيرون هول
، المستعمرة التي حملت اسمه على بوابتها .

ولكن هل كان ذلك ليقدّم له أي قدر من الاطمئنان ؟ هل كان يحبها
حقا ؟ أم كان في استطاعة امرأة أخرى أن تحل محلها في ذكرياته ؟ كانت
تخشى أن تكون مجرد واحدة من قصص عاشها على ظهر السفينة . مجرد فتاة
في أحد الموانئ ! . كانت وهي تجلس في صمت إلى جوار غي تحس بالخوف
والقلق وبالأذى المرتقب .

١٠ - حريق في البحيرة

سأل ستيف جولي بعدما عبر الجسر الصغير فوق الرافد ودفعوا الرسوم المقررة :
« بما أنك أصيلاً من الشمال فلا أعتقد أنك لاحظت استواء الأرض
الواضح هنا في جنوب لويزيانا »

« نعم ولا . فقد لاحظت ذلك . لكنني أعتقد أنك تسأل :

« هل لاحظت ذلك انتباهي بشكل غريب »

وأوماً ستيف بالإيجاب وعندئذ علق : « إذا لا »

« التلال غير مشرفة هنا . حتى أنها تعتبر شيئاً نادراً . وفي حديقة الأورديون
في نيواورليانز تجدون التل الوحيد . في العالم على الأرجح الذي صنعه
الإنسان ويسمى تل الغرود . فلقد تكدست التلغيات إلى ارتفاع وصل إلى
حوالي أربعين قدماً في الثلاثينات وأصبح بإمكان الأطفال في لويزيانا أن
يشاهدوا منظرًا يمثل التل »

وضحك جولي وقالت : « لا إنها الحقيقة . وهذا هو السبب في أن جزيرة
أفري أصبحت من الغرائب منذ زمن بعيد . وأعلى نقطة فيها تصل إلى حوالي
مائة وتسعين قدماً فوق سطح المياه التي تحيط فيها . وهذا ما جعلها تتمتع
بمركز فريد وإن لم يكن قد اكتسبها قبعة »

« وما الذي جعلها كذلك ؟ »

« الملح . وهو اكتشف لأول مرة في ينبوع في أحد الوديان الضيقة الشديدة
الانحدار . تحول بالغبان إلى أشكال بلورية . ورغم ذلك فقد كان استيراد
الملح في أوروبا في القرن التاسع عشر أقل كلفة . وعندما قامت الحرب
١٨١٢ وحاصرت انكلترا الولايات المتحدة كان من الضروري الحصول على
الملح بكميات كبيرة بطرق أولية للغاية عن طريق الغليان والتبخير . وقد اقتضت

الحرب الأهلية والحصار الإقحادي فيما بعد أن يعتمد الجنوب على مصادر
الخاصة في الحصول على الملح . وعندما حاولوا تحقيق ينبوع الملح اكتشفوا
كمية كبيرة من الملح الصخري مترسة مسافة أميال وإلى أعماق لم يكن
التكهين بها ممكناً . وأصبحت هذه نتائج الملح منذ ذلك العهد . واستقوم
بجولة في منجم الملح أولاً »

وتجاهل ستيف الالفة التي تشير إلى الحقائق الكثيرة في الغاية وتابع :
« والملح لا يتكامل دون القلقل . وجزيرة أفري هي منبع صلصة خاصة
تصنع في الجزيرة كلها »

واكتشفت جولي أن المنجم منير وباعث للاهتمام . كانت السفوف ترتفع
مشين قدماً وكأنيما تستند إلى أعمدة بلورية . ولم تسر جولي أن السطح كان
على مسافة تصل إلى ما يقرب من خمسمائة قدم . وبدأ شعور بالخوف من
الأماكن المغلفة براودها عندما استأنفا العودة إلى السطح . وسألها ستيف وهي
تتشق أنفاسها بعمق عندما خرجا : « هل أنت في حال أفضل ؟ »

ونظرت إليه في دهشة وتشققت الهواء وقالت : « وكيف عرفت ؟ »

وابتسم ستيف وقال : « بدا عليك الشحوب قليلاً . سوف أتذكر في المرة
المقبلة أن الأماكن التي تقع تحت سطح الأرض لا تناسبك »

« المرة المقبلة ؟ »

كانت جولي قد أحست بسحر الكلمات ولم تعد قادرة على تثبيت قدميها
وشعرت أنها تسبح وهي تعود إلى السيارة مع ستيف . وكانا على مسافة قريبة
من المنحنى المؤدي إلى حدائق الغابة ومدينة الطيور . وأشار ستيف إلى قصر
كائن على الطريق المقابل لبوابة الدخول وقال : « ذلك هو تل ماي وارد . إنه
حصرة الحديدية وكان يخص المرحوم إدوارد أفري ماكلوييني الذي ينسب إليه
إنشاء حدائق الغابة ومدينة الطيور . هل أنت مستعدة للمشي ؟ »

ونظر إليها في ابتسامة تدفعها إلى الاستسلام وعلقت عندما توقف بالسيارة
في أحد الأركان : « ولكن الطريق لا ينتهي هنا »

« نعم . ولكن لكي تجد الفرصة للاستمتاع الحقيقي بجمال المكان .
ينبغي أن تسير على الأقدام . فضلاً عن أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول
إلى مدينة الطيور »

ولبعت وهي تقول : « المشي متعب »

حسنا . ومع ذلك فلم نستطيع أن نقطع الحدائق بأكملها . فالمساحة تزيد على مائتين وخمسين فدانا .
وفادها الممر الذي سلكناه إلى أحواض نمو الخيزران المستورد ، تنتهي برصيف و مرج للمشاهدة يمتد عبر بركة كبيرة تسبح فيها الطيور المائية بأعداد متفاوتة . كان المكان ينعم بهدوء جميل جعل جولي تفضل البقاء فيه . ولكن ستيف أقنعها بأن أمامها الكثير من المناظر التي تستحق المشاهدة . وشقا طريقهما من جديد إلى السيارة .

كان الطريق ينحني ويستدير في تلك المنطقة وبدأت أشجار الماجوليا جميلة الأوراق والزهر ، كذلك أشجار البلوط الضخمة على الجانبين تليها أحواض الخيزران العالية أو الخفيضة وبعض الأشجار المزهرة . أما أشجار الأزاليا ذلك النبات الصحراوي فكانت شائعة .

وتوقفا ثم سارا خلال الأرض المنخفضة وبين زهور الكاميليا البيضاء والحمراء وشاهدنا الشلالات الصناعية . وعادا إلى السيارة ليستأنفا جولتهما بمحاذاة رافد الأنسو الصغير من اليمين وشريط المستنقع الضيق من اليسار . وأدى بهما الطريق إلى مكان صغير للانتظار ، ووجدا لافتة جذبت انتباههما إلى شجرة كليفلاند الشهيرة التي كانت تستخدم منذ سنوات كنقطة يتم منها مسح المنطقة الأصلية . ولم ينجح الأمر هذه المرة أن يطلب ستيف إلى جولي السير على الممر المؤدي إلى الشجرة ، فخرجت من السيارة في حماسة لتظل عن كتب على ذلك القسم من الحدائق .

ووفقا تحت الشجرة العملاقة يتأملان فعل الطبيعة وأثر الزمن في الأغصان المتكسرة والشقوق الغائرة في جذعها الأخضر . ومع ذلك بدأت الشجرة قوية تستطيع أن تصمد مئات من السنين وعليها مجموعات من الطحالب الأسبانية تبدو وكأنها لحية رجل متقدم في العمر . ولكن الممر لم ينته عند شجرة البلوط بل كان يمتد فيما يشبه غابة كثيفة .

وسألت جولي في استغراب : « إلى أين يتجه الممر بعد ذلك ؟ »
« سوف نستكشف »

وأشار إليها بأن تسيقه قائلا :

« انتهى الممر لاستخدام كثيرا وقد يكون لزجا »
كانت العوارض الخرسانية مغطاة بالطحالب في بعض الأجزاء وكانت قد

تكسرت قطعاً صغيرة في أجزاء أخرى . وساعدتها يد ستيف التي كانت تسند مرفقها على اجتياز الطريق رغم أن ملمسه كان يثير فيها بعض الاضطراب . وبدأ على أحد حائطي الممر مستنقع مائي يشبه مجرى صغيراً بينما ارتفع قصب الخيزران على الحافة الأخرى . وعند ثنية منحني في الممر ظهرت بجعتان يضاوان تسبحان في بقاء على الماء . وأحسنا بوقع الخطى قبدانا تتحركان في مشهد رائع وأحدثنا بعض التموجات الطفيفة على سطح الماء الرائق كالمرآة .

كانت جولي قد سحرت بعنظر الطائر البديع حتى أنها لم تنبه إلى الأرض غير المستوية أمامها واصطدمت قدمها بقطعة ناتئة من الخرسانة كادت تسقط معها إلى الأمام ولكن فراع ستيف حميتها من السقوط ، واحمرت وجنتاها من الاضطراب وتلعنمت وهي تشكره . وحاولت أن تخلص من ذراعه المحيطة بخصرها والتي كانت تشدها لتلتصق به ، ولكنه رفض أن يرخي قبضته وهمس برفقة في أذنها قائلا :

« لم يكن من السهل أن نتجنب ذلك . كان من اللازم أن ينتهي بك الأمر بين ذراعي بطريقة أو بأخرى »

وقبل أن تتمكن جولي من أن تستدير لمواجهته كان بينهما عناق مسيطر . كان كل الحنين الذي حاولت أن تبعده عنها في ذراعيه قد بدأ يتطلق في حرية كاملة عندما استسلمت بسعادة لعناقه . وأحس جولي وكأنها انتقلت إلى أفاق جديدة من الحب سببت لها الدوار أكثر من الشرارة الملتهبة التي رافقت العناق الأول بينهما وبدأت دفء الحب الذي كان بينهما في يوم من الأيام نارا محرقة . واستطاع ستيف بخبرته المتخصصة في العناق أن يطيف مزيدا من القود .

وجاءت فحشه بعض الأطفال من مسافة قصيرة لتهديء من هذا الوضع قبل أن يتطور ما بينهما إلى مرحلة أخرى . ورغم ذلك لم يسمح لها بأن تبعد عنه بل احتفظ بها بين ذراعيه ورأسها يستند إلى صدره حتى هدأت دقات قلبها واستقرت انفاسها بعض الشيء . وأيقنت جولي التي كانت تتطلع إلى مزيد من العناق أنه لولا أصوات الآخرين فلربما قادهما العناق إلى نقطة لا تؤمن . كان عمق حبها له يمنحها السيطرة عليها .

وتحركت يد ستيف نحوها وترك أصابعه تعبت في شعرها وتحرك إبهامه

ليرفع ذقتها الى أعلى . ولم يحاول جولي أن تخفي اشاعات الحب من عينيه
، اذ ما جدوى أن تخفي عنه ما كان قد أدركه تماما ، وتتم في صوت
أجش : « لقد بدأ وهجك يلمحني . كيف نجحت في إخفاء هذا الجانب
العاطفي من طبيعتك ؟ كان أولى بأحد الفرسان أن يقطعك للزواج منذ زمن
بعيد »

وهست جولي وهي تحس بأنها تغرق في نظراته قائلة :

« ينبغي للمرأة أن تبدي موافقتها على الزواج »

وتشفت نفسا عميقا بينما كان ستيف يحاول أن يقرأ ما بين الكلمات التي
نطقت بها . وأحكم ذراعيه حولها . وتوقفت جولي فجأة حتى أن ستيف كان
يصطدم بها . كانت يداه تستندان الى أسفل ظهرها بخفة . وخذق اليها في
نجوم قائلا : « هلا كنت عن النظر الى عينيك البتة ؟ »

كانت جولي تستطيع أن تبين أن رقة صوته مفتعلة . وتابع هو :

« لا أعتقد أن هذا هو المكان الذي نستطيع فيه أن نحقق منهجدا عاطفيا
متقدا بينما يوثا يظل علينا »

ونظرت جولي عبر كتفها ، وعلى ثل صغير في معبد زجاجي مغلق كان
عناك تماثل ضخمة من الذهب ليودا يحيط به ثلاثة السبع يحدق في بركة
صغيرة تعكس صورته على الماء في شمس المساء المتأخر . وبدفعة رقيقة من
ستيف واصلت السير على الممر الذي أدى بهما الى قاعدة المعبد .

كانت الحديقة الصينية موضع اهتمام الزوار . يتوقفون للاستمتاع بمنظرها
الجميل . ولم يعد هناك مجال ليلتمتع ستيف وجولي بالخلاوة التي كانا
منفردين فيها وهما يتجولان في أقسام أخرى من الحديقة . وعندما تسلفا
الدرج المؤدي الى المعبد استطاعا أن يلقي نظرة أقرب على يودا الذي كان منذ
أكثر من ثمانية قرون مضت يجلس في معبد شونفا بالقرب من باينغ في
الصين . وقفلا راجعين الى السيارة وسلكا الطريق العام الضيق الأهل بالمارة
بدلا من الطريق الذي كان يتيح لهما الاستمتاع بالخلاوة بينهما .

وانجتها بالسيارة الى بوابة الخروج مارين تحت ظلال كروم القشيري ذات
الزهر العنقودي الأزرق والأبيض ونحت زهور الكاميليا . بعدما اجتازا المنعطف
الواقع عند ثل ماء وارد . كانت الشمس تحيل الى المغيب بأشعة ذهبية
برتقالية حجبت مؤقتا أطراف القروب القرمزية . وتهدت جولي في عمق رهبا

يجتازان البوابات الحجرية التي كانت تعلن نهاية اليوم الذي قضته جولي مع
ستيف وحان الوقت ليصطحبها الى البيت الذي تقيم فيه . أما هي فكانت
تتمنى أن يطول اليوم الى الأبد .

وسألها في لهجة امرأة : « هل تتأولين العشاء معي ؟ »

وأجابت في حماسة : « أتعني ذلك »

وتوقفت بعض الوقت لتضيف في شيء من التردد :

« ولكنني لست في الزي الذي يسمح لي بذلك »

وضحك وهو ينظر الى قميص البولو الذي تلبسه والى البنطلون المخطط
بالأبيض والأسود وقال : « ولا أنا . ولكن المطاعم هنا لا تصر على الرسميات »
ومد يده الطليقة غير المقعد لتمسك بيديها وقال : « أين تتأولين العشاء ؟ »

« لا أعرف شيئا عن المطاعم هنا »

« هل تفضلين الأسماك ؟ »

« لم أكلها منذ زمن طويل ، وإن كنت قد تناولت بعض القريدس وجراد
البحر عندما كنت مع أسرتي »

« هذا بحجم الموضوع . إذن ستكون وجبتنا بحرية »

كان منظر المطعم يصلح مادة لصورة جميلة . وكان بلاصق رافدا مائيا
ويقوم على ركائز ترفعه حوالي ثلاثة أقدام فوق الأرض . أما الطريق المؤدي اليه
فكان أشبه برصيف بحري تنتشر عليه شباك الصيد وفوانيس الاضاءة المستخدمة
في البحر تتدلي على واجهة المبنى التي فعل فيها الطقس فعله .

أما من الداخل فقد بدت مناظر السفن الشراعية في البحار الهائلة . ومناظر
المرفيء الهادئة تزين الجدران جنباً الى جنب مع بقايا تذكارية من سمك
السيوف وغيره من عينات أخرى . أما الجدران فقد غطيت برفائق خشبية
للزينة وأضيفت بحوامل ذات طراز حديث بينما كانت تتدلي من السقف
بأعمدته الخشبية بعض النجف ليتسجم مع المنظر العام . كان كل شيء يعبر
عن البساطة في حياة البحر . واستأذن ستيف بعدما جلسا الى المائدة مباشرة
ليجري اتصالا هاتفيا وراحت جولي تتفحص الطعام بعناية .

ولم يذكر ستيف شيئا عمن اتصل بهم ولم ترغب جولي أن تتدخل فيما
لايعنيها وإن عبرت ملامح وجهها عن التساؤل دون أن تنطق به وابتسم ستيف
وقال : « لقد اتصلت بجائلا لويلان حتى لا تنتظر على العشاء »

« كان ينبغي أن أفكر في ذلك وخاصة أنني لم أترك أي إشارة عن وجهتي اليوم »

وحول ستيف الحديث بمهارة عندما وجد الفتاة التي تقدم الطعام آتية نحوهما فقال :

« ما الذي استقر عليه رأيك من قائمة الطعام ؟ »

« لا أستطيع أن أتخذ قرارا ما اذا كنت أطلب شيئا أعرفه مثل الفريديس أو أجرب أشياء قد لا تعجبني . من الأفضل أن أختار منتصف الطريق . فريديس مسلوقة مثالا ؟ »

« جربي طبق طعام البحر فتيه قليل من كل شيء اذا كان لديك استعداد للتجريب »

ووافقت جولي وسرعان ما بدأت تشك في قرارها عندما قدم اليها فيما بعد طبق مكسوس لم تر فيه شيئا تعرفه سوى الفريديس المقلي . وبرز أحد الأصناف على الطبق على شكل جسم مستدير تخرج منه أرجل في سائر الاتجاهات حسبته نوعا من العناكيب مما أثار إحساسها بالغثيثان . وكان ستيف يطلب لنفسه الطبق ذاته . وأدرك على الفور ما أصابها من الاضطراب . وأشار الى ثلاث قطع ذات لون بني غامق على طبقها وقال : « هذا محار مقلي »

وأشار الى قطعتين صغيرتين مستديرتين قائلا :

« وهذا فريديس محشو . أما الآخر فهو كايوريا محشوة . وهما تخدمان الفريديس المسلوقة وستجدين كذلك المقلي منه »

وتوقفت أخيرا عند آخر صنف على الطبق وهو أول ما لفت جولي :

« وهذه كايوريا من نوع صدفة هشة »

وبدأت جولي وجبتها بالأصناف التي اعتادتها : الفريديس المقلي . وانتقلت الى المحار ولم يكن له ذلك المذاق الذي لتظيره في بخنة المحار . وكان الفريديس المحشو والكايوريا مذاق لذيذ . أما المسلوقة فكانت مثيلا تبيلا جيدا . وبقي الشيء الوحيد الذي لم تأكله هو الكايوريا ذات الصدفة الهشة . وأخذت بالشوكة قطعة من لحمها الطري ورفعته في تردد الى فمها . وبعد دقيقة نسيت فيها تماما أي لحم هو ، وجدته لذيذ المذاق . وكانت القطعة الثانية أفضل من الأولى ، وشعرت بالزهو تماما الى أن تحدث ستيف قائلا :

« بالنسبة الى الكايوريا ذات الصدفة الهشة يأكل الانسان منها كل شيء »

ونظرت اليه في شك ، وقالت :

« إنك تمزح »

ورد عليها : « لا أمزح بل فأكلين كل شيء »

ولكني يبرهن صحة كلامه نزع واحدة من الأرجل الكبيرة للكايوريا من طبقه ودفعها الى فمه . وكادت عينها تخرجان من مكانهما وهي ترقبه بعنفها بأمانته ويطلعها . وانطلقت من فمها قهقهة قصيرة عندما أدركت أنها لم تكن خدعة وأن رجل الكايوريا لن تعود الى الظهور مرة أخرى .

وقال يؤكد لها : « إنها لذيذة المذاق حقا جربي واحدة »

ولم تدع رغبتها في تجريب الطعام تخذلها هذه المرة ، وخاصة زن ستيف كان ينتظر .. واستجمعت شجاعتها ونزعت إحدى الأرجل الصغيرة ورفعتها في خوف الى فمها ولم تسمح لنفسها بالتردد وبدأت تقضمها . وكانت مثل كل شيء آخر لذيذة هي الأخرى .

وابتسم ستيف وقال :

« الواقع أن الأرجل الأكبر والأذرع الأمامية أطيب مذاقا »

وعندما جاءت الفتاة لتقدم الحلوى ، لم يكن في طبق جولي شيء كثير من البقايا . وكان ستيف قد أحسن الاختيار بأن طلب خليط فواكه طازجة . ولم تكن جولي تظن أن يوسعها أن تتناول شيئا أكثر من ذلك ولكن الخليط كان مفاجأة أخرى ، فلم يكن مذاق أي من أنواع الفاكهة يتسجم مع مذاق نوع آخر . كانت هناك كرات من البطيخ لا تتسجم مع مذاق نوع من كور العسل . ولم يكن طعم الاناناس يتمشى مع طعم الكريب فروت . أما القرولة فكان لها طعمها الخاص بها . وأخيرا استرخت في كرسيها وقد شعرت بالامتلاء وتنهدت وقالت وهي ترى ستيف يشعل سيجارة :

« كان كل شيء لذيذا »

« يسرني أن الطعام أعجبك ، أنه لشيء جميل أن يأكل الرجل مع امرأة لا تمتنع خلال الطعام »

« لن نحتاج الى اقناعي بأن أكل كثيرا ، فقد نشأت في مزرعة ، وبالمقابلة فلقد بدا أنك تعرف جميع أنواع النباتات هنا »

وعندما أحست بشيء من التردد شجعها ستيف قائلا :

« نعم ؟ وماذا في ذلك ؟ »

« لقد أمضيت وقتا طويلا في البحر وكنت أفكر الآن كيف تسنى لك أن
تجمع كل هذه الخيرة عن النباتات وعن المحاصيل مثل السكر وغيره ، بما رأيته
في مستعمرتك ؟
وابتسم قائلا : « لم يمض علي وقت طويل في البحر حتى اكتشفت
الفراة . وربما كان ذلك بسبب الوقت الطويل الذي يجده الانسان عندما لا
يستطيع أن يرى أي أثر للأرض . ولقد أصبحت غاويا للزراعة واللبنة
والجيولوجيا . بل أصبح كل شيء يرتبط بالأرض يستهويني . ولذلك فعندما
قررت أن أشتري المستعمرة لم يزد الأمر بالنسبة الي عن توظيف ما تعلمته
بنفسي مع شيء من التفكير بالاضافة الى بعض المحاولة والخطأ . حتى وصلت
الي ما أنا عليه »

« أليست الفلاحة عملا صعبا ؟ »

وضحك وقال :

« ولكن ألا تتقن في قدرتي على القيام بالأعمال الصعبة ؟ »

وابتسم بطريقة خبيثة وقالت :

« لقد تذكرت أول مرة تقابلنا فيها وأخبرتني أنك من يحمزون بشكل
كبير لفلسفة اللامبالاة التي يعتنقها الكاجون »

« إن لها مزايا . فبعض الناس يأخذون الحياة بطريقة جدية أكثر مما ينبغي .
والتوصل الي المتوسط في الأمور يكون صعبا في بعض الأحيان إنني أعجب
بحماسهم المرحه وتقيلهم للأمور التي لا يستطيعون تغييرها »

« لقد نسيت خيالهم ، وقد قصصيت علي حكاية جراد البحر »

وأوما مبتسم موافقا وقال : « إن لهم قصصا خيالية أخرى كثيرة لا تقل
شاعرية . وعلى سبيل المثال هناك قصة عن ماري انطوانيت بعدما قتلت على
المقصلة . كان ابنها الدوفين وريثها على العرش قد تم تهريبه الي خارج فرنسا
بواسطة أنصار الملكية من سكان لويزيانا ، واستقر به المقام في النهاية في
الولايات المتحدة وأصبح من مواطنيها الذائع الصيت »

وخمنت قائلة : « جان لافيت ، علي ما أظن ؟ »

« لا وإنما جون جيمس أوديون . رسام الطيور المشهور »

ولمست جولي قائلة : « ألم يكن ذلك أبنا باليني ؟ »

« يذكر التاريخ أنه ولد من زواج غير شرعي رغم أن أباه قد نبأه قانونا ،

ولكن الأكاديميون يقولون أنها قصة مختلفة لحماية الدوفين من انتقام الثوار »

ونفض ستيف الغبار من سيكارته وتابع :

« إنهم يقنعونك بأن السجلات التي تقر بوجود أوديون قبل اختفاء الدوفين

هي مزورة كليا لإخفاء شخصيته الحقيقية حتى لا تعرف »

كانت أصابعها تتجول حول فتجان القهوة وقالت :

« إنه من نوع الإثارة لو كانت قصة حقيقية »

وعندما ساد الصمت المائدة وعادت جولي التحديق في فتجانها سألتها

ستيف : « قيم تفكرين الآن ؟ »

« كان هناك شيء من الخيث في الانسامة التي ارتسمت علي فمها وقالت

« كان هذا اليوم شيئا أكثر أحب أن أعيشه دائما »

« ورفيقك في هذا اليوم هل كان هو الآخر شيئا أكثر كذلك ؟ »

كانت سخابة من دخان السجارة غطت ملامحه بحيث لم يكن في وسعها

أن ترى وجهه بوضوح . وقالت بهدف اغاضته :

« ذلك البربري ! في إمكانك أن تطلق عليه ذلك »

وابتسم ستيف ابتسامة عريضة وسحق سيكارته في المنفضة قبل أن تحمل

نظرت لهيب شوقه اليها عبر المائدة التي تفصل بينهما وقال :

« من حسن حظك أنا في مطعم عام وأن هناك مائدة تفصل بيننا »

وتقوس فمه داعما التهديد الساخر الذي كان ينطق به . وأسرعت دقات

قلبيها وهي تتخيل ستيف يمسحها بالعناق ومد يده لتحكم القبض علي أصابعها

التي كانت تعبث بفتجان القهوة الفارغ . وأحسست من خلال قبضته الرقيقة

التي كانت تجمع بين الخشونة والعناق في آن واحد بتيار كهربائي عال ينطلق

خلالها مشعلا طاقة مخزنة في داخلها وهو يقول :

« هل قلت لك اليوم . كم تبدين جميلة ؟ »

وعلقت وهي تضحك : « بما في من نمش وسواه ؟ »

كانت مفتتحة بأنها جذابة الي درجة عالية لا تستحق ذلك الاطراء الكبير .

« لقد رأيت العديد من النساء الجميلات ممن لهن نمش ، ولا أستطيع أن

أعفيك من الاطراء الذي أوجهه اليك بصدق كامل .

أنني أحمد الشمس التي طبعت علي وجهك تلك القبلات العديدة

وجعلتك دائما تشرقين في هذا القدر من الأشعاع »

« وهل في وسع أي فتاة أن تعرض نفسها للشمس لتخطي بمثل هذا
الاحترق ؟ »

وهزت رأسها لتتحرر من سحره الذي كان يسيطر على كل حركة وسكنة
منها . وسحب يده برفق وهو يقول :

« أراك تجددين أن تغيير الموضوع هو أنسب رد . »

وأشار إلى فتاة المطعم لتحضر قائمة الحساب وسألته :

« ماذا تعني ؟ »

« أعني أن علي دائما أن أطفئ النيران التي تشعلنيها وكأنك لا تحس ما

بي ! »

وكانت نظرت تشعل النار فيها . وتتركها وهي تعرف تماما ما كان يعنيه .

١١ - المنعطف

عندما طلب ستيف جولي في اليوم التالي كانت قد غادرت المنزل منذ وقت
قصير لقضاء بعض الحاجيات الشخصية في المدينة ، فترك لها رسالة لدى
السيدة لويلان بأنه سيحاول الاتصال تلك الليلة . وأسفت جولي كثيرا لعدم
وجودها وتلقي الرسالة بنفسها . ولكن كان عراؤها أن الأمل مازال قائما وأن
كلغها الانتظار يوما كاملا .

كانت لانزال بحاجة إلى أن تتخذ قرارا فيما تعمله طوال اليوم ، ولم يكن
من دأبها أن تقبل بسهولة الجلوس بلا عمل . وبدأ لها أن أسلم طريقة لقضاء
الوقت حتى يحين المساء أن تشغل نفسها بالسياحة رغم أن الفكرة لم تكن
مثيرة . وكان هناك مكان قريب لم تزره بعد وهو حدائق رب فان وشكل في
غرب أييريا .

كانت الحدائق الغناء على الطراز الأنكليزي تبدو باردة اذا قورنت بحدائق
الغابة في جزيرة افري . ولكنها كانت هنا من دون ريفيقها . وتأكدت أن
لذلك دخلا كبيرا في نقص حماسها . ونظرا إلى شدة الحرارة والرطوبة قررت
أن تتناول شرابا باردا في رحلة العودة وهي تخرق مدينة نيرايريا .

وتبينت أنها بمحض الصدفة أو بالبحاء لاشعوري جعلت سيارتها الفولكس
واغن تنتظر قريبا من المتجر الذي طلب منه ستيف شراء القماش اللازم لتجديد
الأريكة والكراسي .

ودخلت جولي المتجر استجابة لدافع ماذج . وتعرف عليها فوراً البائع الذي
قام بخدمتها في المرة السابقة وأوضح لها أن الطرود وصلت منذ قليل في ذلك
الصباح وغير ثمن سعادهته لحبيبتها في الوقت الذي كان يعتمزم الاتصال بالسيد
كاميرون . وعرض عليها أن تأخذ القماش معها فقد دفع ثمنه من قبل .

وترددت بعض الشيء خشية ألا يرتاح ستيف إلى ذلك التصرف .

واحتاج الأمر إلى بعض الجهد لإدخال القماش بحجمه الكبير داخل السيارة . وبين جولي بعد ذلك وهي تخشى عصفير الليمون في أحد المطاعم أنها ضيقت وقتا كبيرا في متجر القماش . وعادت إلى السيارة وهي ترجو ألا تكون سببا في تأخير موعد العشاء لأسرة لوبلان كما حدث في الليلة السابقة عندما تأخرت هي وهي .

ووصلت جولي بالفعل في وقت يسبق موعد الطعام بكثير . وعرفت أن ستيف طلبها قبل أن تصل ، وأحسّت بشيء من الاحباط والغضب من نفسها لأنها نغيت ذلك الوقت الطويل في الخارج ولم تجد لديها شهية للطعام . وبدأت تتساءل : هل يخطر لستيف مثلا أنها كانت تقصد مضايقته ؟ لم يذكر ستيف في المرة الأخيرة أنه سيعاود الاتصال بها . ماذا يحدث لو أنه لم يتصل ؟ وأخذت تعاون السيدة لوبلان في حمل الطعام إلى المائدة وهي تنذب سلوكها الذي جعل المكالمات تفوتها . وفكرت في الاتصال به ولكن الهاتف موصول زديء أحيانا . وقررت أن تقود سيارتها إلى كاميرون حول تلك الليلة ذاتها مهما بدا ذلك تصرفا جريئا ، خاصة أنها تستطيع أن تشفع اعتذارها إلى تسليم قماش التجديد .

ولم تخبر جولي السيدة لوبلان بشيء سوى أنها خارجة وسوف تعود في وقت متقدم من المساء . وكان الغسق قد استسلم إلى حلول الليل عندما جلست وراء عجلة قيادة سيارتها ، ولحّت ميشيل عائدة بسيارتها من المدرسة حيث أحضرت بعض الأوراق التي نسيها هناك واضطرت جولي إلى الترتيب حتى تقف سيارة ميشيل في مكان الانتظار ويخلو لها الطريق للخروج .

وضاحت ميشيل تسألها :

« هل تعتزمين الخروج ؟ »

وأجابت دون أن تعطي مزيدا من الإيضاح : « نعم »

ولوحّت ميشيل قائلة :

« احترسي فالضباب كثيف الليلة »

تركت جولي مدينة سانت مارتينيل واتخذت طريقها خلال الريف ، وتبينت أنها لم تع تعليق ميشيل حول الضباب ما يستحقه من اهتمام . فقد كان الضباب يلتف حولها بشكل كثيف لدرجة أنها اضطرت إلى خفض السرعة

أدنى حد ممكن ، وعجزت الأضواء العالية في السيارة حتى عن إن تمكنها من رؤية المستنقع الممتد على طول الطريق بشكل واضح . بل لم تستطع تلك الأضواء أن تكشف الرؤية لأكثر من أقدام قليلة أمامها . وتكاثفت الرطوبة على الحاجب الزجاجي لتزيد من صعوبة الرؤية . واعتمدت على غريزتها في التعرف على تقاطع الطرق والطريق المؤدي بها إلى الحارة الترابية المؤدية بدورها إلى المستعمرة .

كان الوقت يمر ثقيلًا شأنه شأن الفولكس واغن ذاتها على مدى الطريق نصورت جولي أنها ضلت الطريق وبدأ الألم في أصابعها من طول ما كانت تضغط بها على عجلة القيادة . وشعرت بضربات الصداع في مؤخرة رقبته وبالأم في عينيه من كثرة التحديق في الحجب الرمادي الذي كان يحيط بها . وأحسّت بصيحة بأثر تخشى في حلقها وظنّت أنها ضلت الطريق بالفعل عندما لمحت لافتة بيضاء صغيرة قرب حافة الطريق كان من الصعب قراءة ما كتب عليها بسبب الضباب المتكاثف حولها . وأوقفت السيارة نهاما :

« وترجلت منها تاركة محركها يدور . ونظرت إلى اللافتة عن كثب ووجدت العبارة : طريق خاص .. ممنوع التجاوز .

كانت العبارة تعلن عدم الترحيب ومع ذلك أحسّت ازاءها بالاطمئنان . لقد نجحت بمعجزة في الوصول . ورغم ذلك كان أمامها ربع ميل إلى المستعمرة . وغدت المشكلة أنها كلما اقتربت من المستعمرة ومن الرافد على الجانب المقابل زادت كثافة الضباب . ولم يكن هناك أمل في أن ترى المدخل ببواباته الجديدة . واضطرت إلى أن تخمن المسافة وأن تستكشف المدخل سيرا على الأقدام معتمدة على كشاف ضوئي كان معها .

ولم تخط أربع خطوات من السيارة حتى تبيّن شكله الغريب المستدير وساعدها لونه الأحمر في الوصول إليه . وخطت إلى الأمام خطوتين وتشتت أنفاسها بعمق وقد أطبق الضباب كليا على السيارة وأسدل فوقها ستارا يحجبها عن الرؤية . وأخذت تشق طريقها في بطء شديد على طول المستنقع تبحث عن الفتحة المؤدية إلى البوابات وهي تحاول أن تخلص نفسها من الأفكار المقلقة خشية أن تضل الطريق في تلك السحابة السوداء الرمادية .

وكادت تضل الطريق إلى البوابات في ذلك الظلام الكثيف الضباب ووجدتها مغلقة ولم يكن شعاع الكشاف الضوئي يذهب إلى أبعد من البوابات

الحديدية بمسافة كبيرة بسبب الضباب ، ووضعت يديها على القضبان الحديدية الباردة الرطبة في شيء من التردد ، وبدأت تهزها لتستطلع مدى احكامها . وبدأ الجرس المتدلي من العمود وكأنه أخرس بلا رنين ، ومع ذلك وقفت تنتظر قبل أن تتسلى القضبان الحديدية . وكان آخر ما تمنناه أن نرى كلب الرعي الأسود الألماني في ذلك الطقس . ولكن حتى ذلك الكلب لم يخرج للترحيب بها .

كان من السهل أن تتسلى البوابة وبدأت الأشجار والشجيرات على الجانب الآخر بشكل ينذر بالسوء على جانبي الطريق الضيق . وخشيت أن يلب الكلب في أي لحظة بأنيابه البيضاء التي تلمع في الظلام . ولم يكشف الضوء الصادر عن الكشاف الذي كان معها سوى أغصان البلوط الضخمة والطحالب الأسبانية التي كانت تتخذ أشكال ظلال كثيفة .

وبدا ضوء خافت يترائي لها من الغارسونبييرة وزاد توتر أعصابها عندما جاء من الردهة الضيقة صوت نباح خفيف . وتبينت جولي أن الصوت كان أتيا من الباب الداخلي . ووقف الكلب أمامه كأنه يحرسه وصاحت تنادي : « ستيف ! »

وزمجر الكلب كأنه قد يجيب ولكنه لم يتحرك نحوها . وكررت النداء ، وجاء جرس صوتها غريبا في أكتاف الصمت . وخطر لها أنه لو كان ستيف في الغارسونبييرة لسمع صوتها بالتأكيد .

وبدا الكلب قد انس إليها لأنه لم يد أي اعتراض عندما بدأت تخطو باتجاه علي . وكانت لا تزال تتردد في السير أمامه نحو الباب وخاطبته قائلة : « أين سيدك يا بلاك ؟ »

الكلب يهز ذيله تعبيرا عن الود . وخطت جولي خطوة جريئة نحو الباب ولكن الكلب سرعان ما أطلق زمجرة تنبيه عن التهديد . وتوقفت جولي وأخذ الكلب يهز ذيله من جديد وكأنه قد حدد لها نطاق حركتها فسمح لها بالوقوف في الردهة أما الغارسونبييرة فلم يسمح لها بالدخول إليها ، ولم تحاول أن تقتحمه بالسماح لها أكثر من ذلك .

« هل بإمكانني أن أنتظر ستيف هنا ؟ » كان من العيب أن تسأل الكلب وهو لا يستطيع أن يجيب ولكن أعصابها المتوترة بسبب الضباب والسكون جعلتها تفعل ذلك . وأحست بشيء من

الارتياح وهي تسمع صوتها وأن هناك من تتحدث معه .

كانت الرطوبة الساخنة قد بدأت تخترق ثيابها وبدأت تخس بالآلم في عظامها وشعرت برغبة وأخذت تدلك ذراعيها بقوة وهي تنظر في قلبي وخوف حولها . لم يكن هناك أثر لستيف . وبدأت فكرة العودة إلى السيارة والرجوع بها إلى بيت لوبلان في ذلك الضباب شيئا مفزعاً .

وجاء صوت ستيف من الطرف البعيد للردهة الضيقة في شيء من التأنيب يقول : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

وجاء ردها مضطرباً : « لقد جئت لأراك وكنت أقنع بأنك لست هنا » وأقرب منها والغضب يتظاهر من عينيه ، لقد توقعت منه أن يعبر في دهشة أو عن فرحة بها وكان آخر ما توقعت أن تراه غاضباً ، وقالت :

« لقد وصل قماش تنجيد الأريكة والكراسي اليوم . كنت في نيوايبريا وتوقفت هناك . ولقد تركت القماش في السيارة . لم أكن مرتبطة بشيء الليلة وفكرت أن أحضر القماش »

وسألها : « كيف وصلت إلى هنا ؟ » وأجاب في وهن وهي تستسلم لنظرة الخدقة في استغراب : « لقد حضرت بسيارتي ، لم أكن أتوقع أن يكون الضباب بهذا السوء حتى خرجت من المدينة »

وأخذت ترتعد مرة ثانية ولم يكن ذلك بسبب البرد فقط وواصلت تقول : « كنت قد وصلت إلى هنا بالفعل وإلا لكنت رجعت . أكاد أحس أن الرطوبة سرت إليك كذلك »

« ولماذا لم تدخلي إلى البيت حيث الدفء ؟ » « لم يسمح لي كلبك بتخطي المدخل » قالت ذلك وهي تخس بشيء من الضيق لسلوكه الغريب تجاهها .

ونظر ستيف إلى الكلب الذي يجلس في الخارج كما لو كان قد نسي أنه بشي قليلا من الرطوبة . وأمرها في حدة وهو يشير إلى المدفأة : « اجلسي إلى جانب النار حتى أحضر سيارتي إليك أب فلها مضايح خاصة للضباب . أما عن سيارتك فأسألك فأسألك صياح الغد »

« أشكرك على سرورك الزائد لرؤيتي » قالتها في سخرية وهو يتجه إلى الباب ، وكان أسفل ذقنها يرتعد بينما

كانت الدموع تلتهم في مقلتيها ، وحرق فيها قائلا : « ماذا تعنين ؟ »
 « إنها لوعتي . أقود السيارة طوال الطريق حتى أصل الى هنا ولا أجد منك
 حتى كلمة ترحيب أو مجرد استفسار عن حالي قبل أن تخزمني كفضاعة
 لتحملني الى البيت »
 « اذا كيف حالك ؟ كيف حالك مرة ثانية أيتها الغبية الصغيرة التي
 لا تحسن التفكير ! أيتها الخبولة ! »
 كانت تلاحظ بجسدها المرتجف وهو يتشقق أنفاسه ليسيطر على غضبه .
 وأخذ ينظر إليها في صمت وبداء على مؤخرة ظهره . وهمت قائلة وهي
 تعجز عن مواجهة عينيه اللتين تشيران إليها بالإتهام : « أكاد لا أفهم ! »
 وأجاب في كتابة :
 « إن هذا شيء واضح . كم سيارة مرت بها في طريقك الى هنا ؟ »
 وأحست جولي بأنها تتضاؤل أمامه وقالت : « ولا واحدة »
 « ذلك لأن أي شخص لديه ذرة من العقل لا يمكن أن يخرج في مثل هذا
 الضباب »
 « ولكن ميشيل كانت عائدة من الخارج عندما اتخذت وجهتي الى هنا ولم
 يكن يبدو عليها القلق »
 « لأنك لم تخبريها عن وجهتك . هل قلت لها أنك آتية الى هنا ؟ لو أنك
 فعلت ذلك لخبرتك من القنوم »
 « ولكنك لم تحذري . وها إني هنا ، ولا ينبغي أن تعاملني بهذه الوحشة »
 « كان من الممكن أن تنقلب سيارتك في مستنقع أو تصطدم بأحد أعمدة
 الهاتف وتتهشم . ماذا تنتظرين مني إزاء ذلك ؟ »
 وهمت قائلة : « لم أكن أظن أنك تهتم بي الى هذا الحد »
 وقطع ستيف المسافة بينه وبينها في سرعة خاطفة وامدت أصابعه لتشب في
 عظام ذراعها ورفعها الى أعلى وهو يتعمم : « أهتم ؟ ! »
 واجبت كلماته في شعرها البني المسدل على فمه واعترضت في وهن
 قائلة : « أنك تؤذي »
 كان اقترابه منها قد أفقدها الاحساس بالآلم حيث كانت أصابعه تضغط
 على بشرتها .
 « أنك تستحقين ذلك ، وأقل ما يمكنني أن أفعله هو أن أثني جسديك على »

ركبتي أو أخلدك بين ذراعي »
 وحدقت جولي في وجهه وقالت :
 « اذا كان هذا شعورك فلماذا إذن تريدني أن أعود ؟ »
 « هل تفضلين البقاء هنا حتى ينقشع الضباب ؟ سوف تظل الحال كذلك
 حتى صباح الغد على الأقل »
 « كلا لا أستطيع . فقد أحسست بأنني لم أرك منذ مدة طويلة . وفاتني
 مكالمك هذا الصباح ، ثم مرة ثانية في فترة ما بعد الظهر . كنت أريد أن
 أراك فقط »
 « وكنت أنا أيضا أريد أن أراك ولكن ليس هنا »
 « ولكن ما الفرق ؟ »
 « اذا كنت تريد أن أشرح لك فهذا يعني أنك أكثر سذاجة بكثير مما
 كنت أظن »
 « إني لا أستطيع أن أتحمل مشاعري تجاهك ! »
 « إنك تقولين كلاما لا معنى له يا جولي »
 « إني أتحدث الى انسان متحجر . هنا هو كل شيء »
 وقبل أن تجد القرصة للإعتذار عما بدا منها وجدت نفسها بين ذراعيه وهو
 يقول : « إني كنت متحجرا »
 وضعها طويلا اليه . وحملها بين ذراعيه ولم تكن تتين الى أين يأخذها .
 وتغير وقع خطواته وأدركت بعد لحظة أنه يصعد بها الدرج ، فدفعته بقوة بعيدا
 عنها وهي تقول : « الى أين تأخذني ؟ أتركني .. أتركني »
 وخفضت قبضته الوحشية صوتها الواهن وهي تلتصم منه أن يتركها دون
 جدوى . لكنه مالئ أن أعادها الى وضعها واقفة على قدميها .
 كان ضوء الدرج الخافت يرسل بعض أشعته على الحجرة التي كانا يقفان
 فيها ، واستطاعت أن تتبين أنها كانت حجرة توم . وتهد ستيف في نغومة
 وقال : « أريدك يا جولي . لا أستطيع أن أنكر ذلك »
 لماذا ؟
 « لأنك امرأة وأنا رجل . هل تريد شيئا أقوى من ذلك ؟ ! » وأجاب
 جولي في بضع وحزم بعدما رفعت رأسها الى أعلى لتشفخص ملامحه المقتعة ،
 وعلى وجهها بدت نظرات حبيها الحقيقي له :

« نعم يا ستيف يوجد ما هو أقوى من ذلك »
« انك تقولين ذلك لأنك مازلت شابة صغيرة ، ولكنك لم تجربي كيف يتقلب الانسان »

« هل أنت متقلب ؟ وهل تعتزم أن تنساني ؟ »
« لا أقول أنني كذلك تماما لأنك شخصية متميزة طبيعية وسخية »
« أظن أن من واجبي أن أشكرك على هذا المديح »
« لم أقصد أبدا أن أؤذيك يا جولي . أنني سأخذك الى بيتك الآن »
« لا تأسف يا ستيف . لقد أخبرتني الخالة بريجيت ذات مرة أن الحب الحقيقي شيء نادر ، وقليلون هم الذين يعثرون عليه لأن معظم الناس أنانيون لا يستطيعون أن يعطوا من أنفسهم إلا بطريقة مصطنعة »

وسألها في برود : « وهل تعتقدين أنني واحد من هؤلاء ؟ »
واعترفت جولي في قرارة نفسها أنه لم يكن واحدا من هؤلاء بالرغم من أن أقواله وتصرفاته تؤكد ذلك . وبدأ الاضطراب واضحا على وجهها ، وسألته وهي لا تدري أنها كانت تتكلم في لهجة استعطاف :
« قل لي .. لماذا عاملتني بالطريقة التي تصرفت بها الآن كما لو كنت غانية أو شيئا من هذا القبيل ؟ ! »

« تريدن الحقيقة ؟ لأنك كنت تطبلين ذلك بسداجة »
وصاحت في غضب : « لم أطلب ذلك »
كانت على وشك أن ترفع يدها لتصغعه ، ولكنه كبل معصمها ليستع مثل ذلك الهجوم .

« لم تطليه بطريقة شعورية »
« اذا لماذا حاولت أن تستغلني ؟ »
« استغلكت ؟ يا لها من كلمة قديمة لا يستخدمها إلا المتخلفون »
وهزت رأسها في حيرة وقالت :

« أكاد لا أفهمك . تتصرف في وقت وكأنك تهتم بي وفي لحظة أخرى تبدو وكأنك بلا احساس ولا عاطفة تجاهي »
وانضمت شفاه في خط مقطب وهو يحرق فيها دون أن يجيب . ولحمت عيناه تضيقان ولاحظت مرة أخرى كم كانت رموشه طويلة وكثيفة . وظل يحرق بطريقة ناعسة من خلال نظرات غميقة وقال :

« ليس هذا هو الوقت ولا المكان للحوار الذي تريدن أن تجريه »
وسار أمامها متجها نحو الدرج ، وعندما وصل الى منتصف الدرج نظر اليها وقال : « هيا سأوصلك الى البيت »
وترددت جولي بعض الشيء اذ خطرت لها فكرة أخرى ، وقالت في صوت مضطرب : « ستيف .. هل تستغلي لتنسى .. لتنسى كلودين ؟ »
وقطب قائلا : « ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك ؟ »
« لقد سمعت .. »

ثم توقففت وهي تعرف أن أي ذكر لأسم غي سوف يجعله يعلق بطريقة ساخرة وواصلت قائلة :

« سمعت أن الرجال يبحثون أحيانا عن نساء أخريات لينسوا امرأة معينة »
وسألها في هدوء مشوب بالانذار :

« أتريدن أن أحملك مرة أخرى لأهبط بك الدرج ؟ »
وألحت في السؤال :

« هل صحيح . فانه لشيء مجد ولكنه لا ينطبق على هذه الحالة ، على الرغم أن الاحتمال المضاد قائم »

« هل تعني أنك تريد أن تنساني ؟ »
وتشقت جولي أنفاسها فيما شعاع من الأمل يضيء عينيها وتابع قائلا :
« وخاصة عندما تختبرين صبري كما تفعلين الآن . لأخر مرة .. سأوصلك الى المنزل .. هيا .. اهبطي ! »

وشعر ستيف أنه أزاء حالة من حالات الاكتئاب الغريبة .
كانت جولي تتذكر في سرعة ما صاحب تلك اللحظات الانفعالية التي وقعت بينهما قبيل ذلك بوقت قصير لدرجة أنها كانت تصر على مزيد من الحديث حولها . بينما أوضح لها أنه يريد أن يستعيد لها . وكانت مشاعرها تتجاهه مختلفة لدرجة أنها لم تكن واثقة من حقيقة تلك المشاعر . لم تكن بالفعل تعرف حقيقتها ، بل زاد شكلها . كان شيئا معقدا لا يمكن بخبرتها المحددة أن تستطلع كنهه ، وأدركت أنه كان يعرف ذلك أيضا .

وتمكنست مصابيح الاضاءة في السيارة اليك أب أن تكشف الرؤية بطريقة أفضل . وكانت السرعة التي تسير بها أبطأ من المعتاد ولكنها كانت أسرع مما كانت تقود به جولي سيارتها في رحلة القدموم . كان ستيف يوليها كل

اهتمامه ولكنها بدت وهي تجلس على الكرسي المجاور له جثعا بلا حراك .
وعندما توقفت السيارة أمام بيت لوبلان ترك ستيف المحرك دائرا ليوحى لها
أنه لا مكان للوداع الطويل . وقال لها :
« سأحضر سيارتك في الصباح وقد يكون ذلك قبل أن تستيقظي من النوم »
كانت كلماته الخشنة تدل على أنه يستعجل الانصراف . ومدت جولي
يدها إلى مقبض الباب ، ووجدت يده تمتد إلى ذراعها لتسببها وهو يقول :
« يجب أن أذهب إلى نيواورليانز غدا لقضاء عمل ، وسأبقى هناك أباما »
وسألته وهي تعرف أن نعمة صبرتها كانت تعكس المشاركة :
« ماذا تريد أن تقول لي ؟ »
ولكن برود ستيف كان قد ساءها وأرادت أن ترد عليه بالطريقة ذاتها .
واكتفى ستيف بأن اصطنع تهيدة غاضبة ومد يده ليفتح الباب وهو يقول :
« لا أدري .. طاب مساءك يا جولي »

١٢ - كان العذاب

« أين كنت ؟ »
كانت جولي قد أسرعت إلى داخل المنزل وصعدت إلى قرب منتصف
الدرج عندما فاجأها سؤال كلودين وجعلها تتوقف فجأة . كان كل ما تريده
أن تلوذ بحجرتها لتدرف الدموع التي تحرق مقلتيها .
وأجابت : « في مهمة .. إذا كان أمرا يعينك ! »
وسخرت كلودين قائلة :
« لا بد أنها كانت مهمة مناسبة مكنتك من جعل ستيف بعيدك إلى هنا »
كانت جولي على وشك أن تكمل صعود الدرج ، ولكن الفتاة ذات الشعر
الأسود في لون الغراب ، واصلت وعيناها تلطمعان مثل الفهم المتقد :
« من المؤسف أنك لم توجهي إليه الدعوة للدخول . كان بودي أن أتحدث
إليه في أمر ما . ولكن يبدو أن ذلك سوف يتأجل إلى الغد »
« سيكون عليك الانتظار مدة أطول »
أجابت جولي بطريقة تشبه الطريقة التي تحدثت بها كلودين ، رغم أنها لم
تكن قادرة على مواجهة عيني المرأة الأكبر سنا وواصلت :
« إن ستيف ذاهب غدا إلى نيواورليانز وسيمكث هناك حوالي يومين »
وانطلقت جولي تصعد الدرج بينما واصلت كلودين تقول :
« يا لحسن الحظ ! »
كانت رقة العبارة التي أطلقتهها أكثر إغاظة من ألفاظ السخرية التي تحدثت
بها فيما سبق .
كانت القولوكس واغن الجمراء تقف في مكانها السابق خلف المنزل في
الصباح التالي عندما نهضت جولي من الفراش وكانت قد نامت نوما متقطعا

وبدا ذلك في النظرة المقلبة على وجهها وفي الدوائر السوداء تحت عينيها .
فكم حاولت أن تجعل نفسها تدرك كيف تصرفت بطريقة غير منطقية ، ولكن
لم يكن في قلبها مكان للمنطق . كان هناك شيء فقط وحاولت أن تقوم
نفسها لأنها عرفت مدة لا تقل عن أسبوعين ولكن كم من عاشقين وقعوا في
الحب ساعات قليلة ، ولم يكن حبهما أقل قوة أو أقل دواما .

وتساءلت عما يشدها إليه : هل الجاذبية الجسدية أم الافتتان أم الاغجاب
برجل أكبر سنا وأكثر خبرة ؟ لعل كل صفة من هذه كانت السبب ولكنها
كانت تعلم أن لا شيء من هذه جميعا ، تماما كما عرفت من قبل أنها لم
تحب جون بالطريقة التي ينبغي أن تحب بها المرأة زوجها .

لو أنها فقط فهمت شيء ! كانت تحس به مشدودا إليها وهو يعانقها ، بل
لعلها أحست بشيء أكبر من ذلك ، ربما كان يحبها بالفعل ، ولكنه بسرعة
زئبقية يعلن أنه لا يؤمن بالحب وأنه لن يتزوج أبدا . هل كان يخشى الحب ؟
لم تكن تصدق أن شيء يمكن أن يخشى شيئا وعلى الأخص ما لا يؤدي
مثل الحب .

لا يؤدي تلك أضحوخة . لتتأمل ماذا يفعل بها . لقد جعلها تلتوي الى عقد
تحتاج الي بحار خبير ليحلها . بحار ! ! كان شيء بحارا . هل خطر لها هذا
التشابه لأن ستيف كان سبب عذابها .

وبدا الموقف كله يائسا في نظرها .

وطال اليوم في غيبة ستيف الذي كان في نيواورليانز . وأحست بفراغ يكاد
لا يصدق . وحتى لو كان هنا فلم يكن ذلك ليغير شيئا من الاحباط الذي
كانت تحس به . وتذكرت جولي الأمساء التي كانت تعيشها قبل أن تحضر الى
لوزيانا . وبدت تلك المشكلة صغيرة الآن أمام حبها الأزلي لستيف .

كانت جولي تعرف أنها لا يمكن أن تبقى حبيسة المنزل طول النهار ، وقد
أبدت السيدة لويلان اهتماما بالكأبة البادية على وجهها وهي تناول طعام
الافطار . ولم تكن تحس برغبة جادة في زيارة أي بقعة من المناطق السياحية ،
وتركز اهتمامها في شيء واحد أرادت أن تنجزه وهو أن تلتقط مجموعة من
الصور لكاميرون هول حتى اذا عادت الى داكوتا الجنوبية استطاعت أن تعرض
على الأسرة صورا عن بيت أسلافهم .

ولكن أن تعود الى مسقط رأسها ولا ترى ستيف ثانية جعلها تهوى الى

أعماق من الأسى مرة أخرى . وأخذت تتجول في الأراضي المستعمرة وكلب
الرعي الألماني اليقظ دائما يسير في أعقابها . ولكن ذلك لم يتجح في رفع
معنوياتها . كان ذلك رمزا للنهاية وهي تلتقط الصور كما لو كانت سترحل
في اليوم التالي بينما كان لا يزال أمامها أسبوع من أجازتها لم يبدأ بعد .

وكانت تعرف كذلك أنها لن تستطيع ان تنظر الى الصور دون أن تفكر في
مالك المستعمرة الحالي ، ودون أن تتخيل منظره ووراءه زهور الأزاليا الحمراء
في لون اللهب والاعمدة الضخمة المستديرة .

وعادت جولي الى بيت آل لويلان في وقت متقدم بعد ظهيرة ذلك اليوم .
وكان وصولها في الوقت الذي رجعت فيه ميشيل وغبي . ورغم أنها كانت
تحس بالحاجة الى الاسترخاء في حجرتها فقد أحست أنه لا يليق ترك ميشيل
وغبي وحدهما خاصة أن ميشيل وجهت إليها دعوة ودية للمشاركة في احتساء
شراب مثليج . ول سوء الحظ اضطرت ميشيل الى الانسحاب لتجيب على مكالمات
هاتفية وبقيت جولي وغبي وحدهما . رغم حرصها على تجنب ذلك .

ونظر إليها غبي في ايسامة قصد بها اللهو من جهة والتمويه عليها من جهة
أخرى ، قال : « لا تبشني يا جولي ! »

وسأله في عنف : « ماذا تعني ؟ »

« أرى وجهك يكتسي باكتئاب مستمر وكأنك لم تسمعي من قبل تحذيرا
بأن هذا قد يحدث ! »

« لا أستطيع أن أفهم ما تعنيه . ما الذي يمكن أن يحدث ؟ »

ونهضت على قدميها في تأهب للدفاع عن النفس ، واتجهت لتطل من
النافذة ولم تكن ترى العصفور الأحمر المغرد يرفرف بجناحيه حول شجرة
الجنوليا .

« كلودين وستيف بالطبع ! »

وقالت بلا شعور : « ستيف في نيواورليانز .. أليس كذلك ؟ »

وهز رأسه في حيرة وقال : « إنك حقا لا تعرفين . هل تعرفين ؟ »

وأحست بهاجس غريب يتسلل الى صدرها وسألت : « أعرف ماذا ؟ »

« لقد ذهبت كلودين مع ستيف الى نيواورليانز »

« لا ! ! »

وشهقت نفسها وأخذت تهز رأسها في شك وهي تقول :

« لا . هذا غير صحيح »

وحاصر حلقها بكاء هستيري كتمته جولي بيد منقبضة وضعتها على فمها .
لقد فهمت الآن الأسباب التي وراء ما قاله ستيف الليلة السابقة . كان
يحاول بلباقة أن يخبرها أنه لا يجعلها تدرك أن مشاعره ليست بالدرجة ذاته ،
بل لقد ألحج إلى أنه قد يستخدم كلودين لينسى جولي وكأنه يهيئها للخير
الذي ألقى به غي الآن .

كان غي قد اقترب خلفها ووضع يديه برقة على كتفيها وهو يقول :

« إنك رفعت في حبه حقاً .. أليس كذلك ؟ »

لم تكن جولي تنق في قدرتها على الكلام دون أن يتهدج صوتها بالبكاء ،
واكتفت بأن أومأت بالموافقة وواصل يقول : « أنت أيتها المجنونة الصغيرة »

وراح يهزها قبل أن يحتويها بين ذراعيه وتابع :

« لقد أخبرتك أن كلودين سوف تنصبر »

وأجاب جولي بصوت مرتجف بعدما رفعت إليه عينيها المليئين بالدموع :
« إنها لم تنصبر ! ألا تفهم ؟ إن ستيف لا يهم بأي منا . حاول أن تقول

لي ذلك الليلة الماضية »

« هل رأيته الليلة الماضية ؟ »

« نعم رأيته فترة وجيزة »

لم تكن جولي لتخبر غي أن ستيف حاول أن يقتصبها . وواصلت تقول :

« ماذا أفعل يا غي ؟ لا أستطيع أن أواجهه مرة أخرى . لا أستطيع »

وعلق غي وهو يضغط على أسنانه : « لم يكن من حقك أن يلهو بك »

« لم يعد هناك وقت للتفكير في ذلك الآن . فضلاً عن أنها ليست غلطة

ستيف . إنني وثقت به »

وأضافت في رزاة بعدما زال أثر الصدمة الأولى :

« أعتقد أن الوقت حان لكي أعود »

« إلى داكوتا الجنوبية ؟ »

« نعم ، لقد انتهيت من مشكلة هناك لأقع في مشكلة أخرى هنا »

ومسحت الدموع عن وجنتيها ورفعت كتفيها وتابعت تقول :

« لقد كان التغيير هو العلاج آنذاك ، واعتقد أنه العلاج الفعال الآن »

« ولكن مازال أمامك أسبوع آخر وفقاً للبرنامج ولقد أخبرت أمي بذلك »

« أعرف خطتي . ولكن أعتقد من الأفضل أن أعدل هذه الخطوة الآن »

وفي المساء على مائدة العشاء ، أعلنت جولي لأسرة لوبلان عن اعتراضها
الرجيل . وانتحلت عذراً لذلك أنها تلقت خطاباً من الديها يشيها عن مرض
أحدى قريباتها رغم أن ذلك لم يكن صحيحاً مما جعلها تتخذ قرارها المفاجيء .
ورأت أنها إذا حزمت أمتعتها الليلة وحملتها إلى السيارة في الصباح فسوف
يكون بإمكانها أن تتخذ طريق العودة قبل رجوع ستيف وكلودين من
نيو أورليانز . ولم تكن جولي وضعت في تقديرها حساساً للاعتراضات التي
أثارها أميل لوبلان الذي صمم على أنها ينبغي ألا تبدأ الرحلة الطويلة دون أن
يتم فحص سيارتها في أحد الكاراجات المحلية . وحاولت يائسة أن تقنعه بأنها
سبق أن فعلت ذلك بعناية قبل رحلة القدوم من داكوتا الجنوبية ، وأنه لا داعي
إطلاقاً لتكراره ثانية . ولكنه كان صلباً عتيداً وصمم على أن جولي التي
أصبحت بعناية عضو في أسرته خلال إقامتها القصيرة ، ينبغي ألا تقوم بتلك
الرحلة الطويلة في ظل احتمال حدوث أي غلط ألي في سيارتها . وعززت
السيدة لوبلان كلامه بأن الغد يوم السبت وأن عطلة الأسبوع ليست الوقت
الملائم للقيادة ثانية ، ولكنها رفضت الانتظار حتى يوم الاثنين . وقررت أن تبدأ
رحلة العودة يوم الأحد بغض النظر عن ازدحام المرور .

وعندما حان عصر السبت كانت جولي قد أتمت حزم أمتعتها وكانت على
استعداد لوضعها في السيارة . وأوصلها غي بسيارته إلى الكاراج المحلي لتأخذ
الفولكس واغن التي لم تحتاج إلا لبعض الإصلاحات البسيطة . وحدقت جولي
نحو الشاب الصغير الذي أصبح منذ لها في صمت وهي تدفع فاتورة إصلاح
السيارة وسألته في صوت هاديء : « متى تظن أنهما سيعودان ؟ »

ولم تكن بحاجة إلى أن توضح له أن من تقصدهما هما كلودين وستيف
وأجاب : « أظن أنه لا يفضل القيادة في الظلام بسبب الضباب ، وأعتقد
أنهما قد يصلان في أي وقت من الآن حتى الغروب »

وعندما عاد غي وجولي إلى بيت لوبلان علما أن ستيف حضر منذ قليل
لإيصال كلودين وقتل راجعا . وأحسست بالإرتياح لأنها لم تضطر إلى مقابلة
بالصدفة . وشعرت بتعاطف الأقدار معها لأنها كانت في الكاراج تتسلم
سيارتها عندما حضر ، وبذلك وفر عليها مزيداً من الارتياح . حتى كلودين لم
تكن موجودة . إذ كانت دخلت الحمام بعد رحلة في الجو الرطب الحار من

نيو أورليانز . وأحست جولي بالسعادة لأنها لن تضطر الى مواجهة الاتسامة المصطنعة من الفتاة الأكبر .

كانت جولي وغي في الخارج يرتبان الامتعة في الفولكس واغن الصغيرة عندما جاءت ميشيل الى الباب الخلفي وأخبرت جولي أنها مطلوبة على الهاتف . وسألت جولي وهي تنظر في توجس الى غي : « من المتكلم ؟ » وأجابت ميشيل : « لم أسأله ، ولكنني أظن أنه ستيف »

وتحدث اليها غي قائلاً : « هل تريدان أن نقولي له أنك مشغولة ولا نستطيعان الحضور للمرد على الهاتف ؟ »

واستخدمت جولي الفرشاة في تمشيط شعرها وتنشقت نفسا عميقا وقالت : « لا .. لن يحاول زن يثيني عن رأيي »

كان صوت كلماتها يدل على شجاعة كبيرة ، ولكنها كانت تحس برغبة في الهرب وهي تمسك سماعة الهاتف الموضوع على المنضد في الصالة . وحدثت نفسها : تشجعي !

ثم قالت في السماعه : « نعم ؟ » وكان في صوتها شيء من البرود وكأنه صوت من يتحدث حول العمل ، ولكن ركبتيها كانتا ترتعدان كأنهما خليط هلامي .

« أكر ستيف يتكلم . لم تكن سيارتك هناك عندما أحضرت كلودين » وتعمجت جولي من طريقته اذ كيف يجرؤ على أن يتحدث بلا مبالاة .. وأجابته بما لا يدل على شيء : « لقد سمعت أنك رجعت من نيو أورليانز » كانت هناك مباراة كرة قدم وكان المرور مزدحما ... وإلا عدنا في وقت مبكر »

وأحست جولي أنه ليس في سمعها أن تختمل ذلك الحديث فقالت : « إنني سعيدة لأنك اتصلت هاتفيا . وكان في نيتي أن اتصل بك فيما بعد لأخبرك أنني عائلة غدا الى داكوتا الجنوبية »

وأجاب في صوت خفيض لم تكده سمعه : « ماذا ؟ » « نعم ، إن إحدى خالاتي في المستشفى وقد كتب لي أهلي يقترحون عودتي ولقد حدث ذلك فجأة علي ما أعتقد ، وهي تحتاج الى هذه العملية » وخطر لها أنها تكرر الكلام وكأنها تحاول أن تغممه بصحة أسباب عودتها . وعلق في جفاف :

« ولكن ذلك جاء بطريقة مفاجئة للغاية »

« نعم . حسنا . لقد أردت أن أقول أن أرحل . وهذا هو السبب الذي كنت سأطلبك من أجله فيما بعد »

وتحدث في بطاء وبوضوح تام : « أريد أن أتحدث اليك يا جولي » « اسفة ، فلدي الكثير من العمل قبل الرحيل : حزم الأمتعة وسواء . بحيث يبدو من المستحيل حقا بالنسبة الي »

وجاء صوت كلودين يقول : « هل ستيف على الهاتف ؟ » ووضعت جولي يدها على السماعه حتى لا يصل الصوت الى ستيف . كانت كلودين تنظر اليها عبر حاجز الدرج وكانت ترتدي قميصا أخضر من نسيج ويرى يصل الى ركبتيها .

وأجابته جولي : « نعم ، إنه ستيف » وطلبت جولي الى ستيف أن يبقى على الخط لحظة قبل أن تستدير الى كلودين وتساكها : « هل هناك شيء تريدان أن نتحدثيه عنه ؟ » وأجابت كلودين :

« نعم ، إنني لا أجد قميص النوم الأخضر ولقد بحثت عنه في كل مكان ولكن يبدو أنني قد وضعته دون قصد في حقائب ستيف . هل تسألينه ؟ »

وتذكرت جولي في شيء من الغضب والحقد ذلك الرداء الأخضر المزرق الذي يشف عما تحته والذي كان يذكرها بربيش الطاووس . وهزت كلودين كتفيها عندما لاحظت مشاعر الغضب تبدو على وجه جولي ، وأخذت السماعه في هدوء وقالت : « ستيف أنا كلودين »

ونظرت الى جولي التي تسمرت قدماها على الارض بايسامة عذبة قائلة : « أنت تذكر قميص نومي الأخضر المزرق . أنا لا أجده وأحسبه قد اختلط مع حاجياتك ؟ هل وجدته ؟ لا .. ليس من الضروري .. يمكنني أن أحضر لأخذه غدا . جولي ؟ »

وارتسمت على وجهها علامة استفهام كبيرة . وعندئذ استدارت جولي وخرجت في بطاء وتعال من الصالة الى الخارج .

لم يحاول غي أن يثرأية استفسارات حول المكالمه فقد لاحظ تعبيراً مكتوماً على وجه جولي التي واصلت العمل في حزم الأمتعة في شيء من الانتقام . واتمت وضع كل شيء داخل السيارة بما في ذلك المخرايط التي تحدد لها

الطريق في أقل من نصف ساعة . وعندما أغلقت أبواب السيارة كان الغسق الأرجواني يتصارع مع ظلمة الليل . وقد أُمسي كل شيء على أنه استعداد لرحلة الصباح . ودخل غي إلى المنزل قبل ذلك بدقائق قليلة ليعد بعض المرطبات .

ومسحت جولي قطرات العرق عن جبهتها واستدارت متجهة إلى الباب الداخلي لتلتحق به . ولم تكد تخطو خطوتين حتى انغلق الباب الداخلي ووجدت أمامها شيئا عالي القامة يقف في طريقها . وتوقفت لحظة وفكرت في الهرب لكنها لم تستطع . وارتسم على فيها خط من الكآبة وهي تسير نحو ستيف .

وكان في وسعها وهي تقترب منه أن ترى آثار التعب على وجهه ولكنها رفضت أن تجعل الشفقة تضعف من تصميمها أو من ضربات قلبها المتكرب . وبدت عيناه في الضوء المعتم في زرقة أكثر قتامة وهما تلاحظان اقترابها منه . « ما كنت بحاجة إلى أن أكلف نفسك عناء الحضور »

قالت في شيء م البرود ، وتوقفت على بعد خطوات منه وسخر منها قائلا : « صحيح ؟ »

وقالت وقد جعلها الكبرياء ترفع ذقنها بدرجة أعلى قليلا مما اعتادت :

« لقد تبادلنا كلمات الوداع عبر الهاتف »

ولم يكن بحاجة إلى أن يذكرها :

« ولكن محادثتنا الهاتفية قطعت »

« غير أننا كنا قد قلنا كل ما هو مهم قبل ذلك . وكانت كلودين قلقة

تريد التحدث إليك »

كانت نظراته تخوم مستفسرة عبر وجهها وهو يقول :

« لقد أعدت اليها رداؤها المفقود »

وواصلت تجيبه في هدوء :

« كان ذلك احتراماً منك لمشاعرها . وأظن أنها ستقدر لك ذلك ، فقد

كانت قلقة لهذا السبب »

« ما الذي جعلك تقررين الرحيل بهذه الطريقة المفاجئة ؟ »

« لقد شرحت لك . إن خالتي مريضة »

« أنا لا أصدقك هل يعقل أن يسبب لك مرض الخالة مثل هذا القلق ؟ »

وانتهزت جولي الفرصة لتعزيز أسباب الرحيل فقالت :

« إن الخالة بريجة لها مكانة خاصة فهي التي زوجتني بالمال المحصور إلى هنا . وصلتي بها قوية للغاية ولذلك فمن الطبيعي عندما تمرض ألا أكتفي بهز كتفي كما لو كان الأمر بهذه البساطة »

وبدأ يستسلم لصدورها رغم أنها كانت ترى آثار الشك على وجهه تصارع لإقناعه بعدم تصديقها . كانت هذه فرصتها للرحيل لعلها تنفذ كرامتها دون أن تخدش .

وأوشكت على الحركة ولكن صوته أوقفها وهو يقول :

« لدي شعور بأن هناك شيئا لا تريد أن تصرحي به »

وبلعت ريقها وقالت : « لا أدري ما هو ؟ »

وأخذت تجهد عقلها كي تكتشف ما إذا كانت هناك ثغرة في قصتها .

وواصلت تقول :

« أنا .. لم .. لم أشكرك لأنك أمنت لي فرصة التعرف على الملامح المحلية

بما جعل لرحلتي مغزى خاصا »

وارتسمت على وجهه ابتسامة مزيفة متسائلة ، حبست أنفاسها ، وقال :

« شيء أكثر »

شيء أكثر . العبارة ذاتها التي قالتها في مناسبة سابقة ربطتها به وواصل

يقول : « لقد حاولت أن أجعل لوبيزانا تتجسد في صورة حبة أمامك »

لم يكن باستطاعتها أن تقول له أنه قد جعلها هي تستمتع بالحياة وأنها قد

أدركت في النهاية مدى قوة أنفعالاتها كامرأة . واكتفت بأن اصطنعت

ابتسامة من أعماق الأمها ، وقالت وهي تحاول أن تسير على رجلها المرتعشين

إلى أول عتبة للدراج في البيت :

« لقد أمنت لي فرصة سمعت فيها برفقة شاعرية »

وقال في شيء من السخرية :

« رفقة شاعرية ممتازة كما يحدث على ظهر السفن »

وأجابته بسرعة وهي تحاول أن تريح عن كاهلها أثر كلماته الخبيثة :

« نعم ، إنه غريب حقا كيف أن العودة إلى الوطن تجعل الفتاة تعود إلى

عالم الواقع »

وبدت في عينيه نظرة احتقار جعلتها تشعر بالسعادة وهو يقول :

« بلا مشهد يشير الارتباك .. وبلا وعود بالحب الذي لا يلي .. لعله أفضل كثيرا هكذا .. وأعتقد أنك سعيدة الآن كون عواطفك لم تؤد بك الى ارتكاب غلطة كنت ستعيشين نادمة بسببها »

كان ستيف يشير الى لقاءهما السابق ليلة الضباب . ولكن جولي كانت تقابل كلاماته بالصمت الذي لاذت به حتى لا تصرح بحبها له . ولم يكن في وسعها أن تتحمل اشفاقا عليها فقالت هامسة والدموع تتجمع وتومض في عينها : « نعم »

« والآن سوف يكون في وسعك أن تتحدثي الى صديقاتك عن الرجل الذي قابلته بجانب الرافد »

وأدارت جولي رأسها بعيدا عن لهب الثقاب وهو يشعل سيجارته وقالت :
« لقد كانت حقا مطابقة كاملة . كيف اتضح إنك إتيان ، ثم كيف اتضح أن إتيان هو ستيف مالك كامبرون هول ! »

ووافقت في صوت مترمتم ، فقد كانت تعرف تماما أنها لا يمكن أن تخفي لأي شخص القصة الكاملة ولو على سبيل الثرثرة .

وبدا ستيف يتحدث وكأنه يخاطب نفسه قائلا :
« أعتقد أنك كنت على حق عندما قلت أنه لا يوجد شيء آخر يمكن أن يستمر الحديث بيننا حوله .

ولقد بدأت أفكر في أنني ينبغي أن أندم على اليوم الذي دعوت فيه نفسي الى مشاركتك الوجبة التي كنت تأكلينها يوم الرحلة »

وكانت رغم الظلام تستطيع أن تتبين أنه كان ينظر اليها ومضى يقول :
« أعتقد أن هذا هو الوداع اذا »

ومد يده نحوها ، وترددت في أن تمد يدها اليه . فقد كانت تعرف أن ملمس يده لن يزيد بها إلا رغبة متأججة في أن تلقي نفسها بين ذراعيه .

ولكنها استطاعت السيطرة على نفسها وهي تصافحه ، وقد شعرت بدفء قبضته القوية يسري الى أعلى ذراعها وخلال جسدتها . وإن كانت لم تخف الألم البارد الذي يخفق في قلبها والذي جعل صدرها يحس كما لو كان على وشك أن ينفجر . وقالت في رقة : « وداعا ستيف »

وأحست بأن لحظة الوداع حكم قد صدر عليها بأن تعيش وحيدة طوال حياتها . وتتمت ستيف في سخرية قبل أن يطلق يدها :

« أيتها العصفورة .. أيتها العصفورة .. طيري وعودي الى وطنك البعيد . رحلة موفقة يا جولي »

كان الضوء المنبعث من المنزل يجعل كل شيء في الخارج يبدو أكثر قتامة . وبدت الأشجار كنسيج العنكبوت أمام أول نجوم بدأت تتلألأ . وبدأ ستيف كشبح قائم قبل أن يتلعه الظلام ويختفي عن الانظار .

كان في وسع جولي أن تعرف الآن لماذا لم يتحطم قلبها كلياً ، لقد نصورت أن ستيف سوف يصير على عدم تصديق قصتها الهزيلة ويضمها بين ذراعيه بقوة ليخبرها أنه يحبها لدرجة يجعله يمنعها عن الرحيل . ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بأن قال لها . رحلة موفقة .

لقد كان سعيدا بذهابها . وأراد أن يصدق قصتها . وكان سعيدا كذلك عندما اعتبرته مغامرا رومنتيقيا . كانت تلك هي الحقيقة ، بغض النظر عن النتائج بالنسبة الى قلب تحطم . وارتعدت جولي وأحست فجأة ببرودة قاسية ومخيفة . وبالوحدة والفرع .

١٣ - شيء ما أكثر

لم تعد جولى الى مزرعة والديها بل اتجهت الى شقة خالتها بريجيت عند شلالات سيو. وبعد العناء الذى قاسته فى رحلتها الطويلة الى داكوتا الجنوبية حيث رفضت أن تسمح لحزنها بأن يعبر عن نفسه من أى منفذ، كان من الطبيعى لدى رؤية خالتها أن تطلق العنان لانفعالاتها ودموعها. وتحملت خالتها بريجيت، بطبيعتها العملية، مسؤولية التصريح بما لم تستطع جولى أن تصرح به. أنه كان من المستحيل بالنسبة اليها أن تعود لتعيش فى منزل أبويها. ولم تمض أيام قليلة حتى حصلت جولى على وظيفة مسؤولة عن التغذية فى مؤسسة خاصة للتمريض. وكان المرتب ضئيلا للغاية ولكنها لم تكن تهتم كثيرا بالنقد، فقد كانت بحاجة الى العمل لتشغل تلك الساعات المليئة بالذكريات المؤلمة. وأصرت خالتها على أن تشغل جولى غرفة النوم الثانية فى الشقة، ولو لفترة محدودة، حتى تستطيع الاعتماد على نفسها عاطفيا وماديا. وكان من حسن حظ جولى أنها نزلت لدى خالتها بريجيت التى كانت تطمئن لى مآكلها وخروجها الى العمل فى الموعد المناسب، وكانت تتخذ القرارات التى لا تستطيع جولى أن تهتم بها.

وكان الأسبوع الأول نموذجاً سارت على متواله الأسابيع التالية، فكانت جولى تنهض فى الصباح وتذهب الى العمل وتعود الى البيت وتتناول طعام العشاء الذى تعده بريجيت، وتعاون فى أعمال المطبخ وتقرأ أحد الكتب أو تشاهد التلفزيون ثم تذهب الى الفراش. وعندما حانت اعياد الميلاد بذلت جولى أولى محاولاتها للمشاركة فى بهجة العيد لعلها تتخلص من العبء الذى جعل حياتها أشبه بالقيوبية. وبذلت جهدا كبيرا لتختار الهدايا الملائمة لكل عضو من أفراد الأسرة. وكانت أصعب الهدايا فى الاختيار هى هدية

أيها، فعندما كانت تدخل قسم الرجال فى أى محل تتخيل كيف يمكن أن يبدو ستيف فى أى من الأزباء. وحرصت الخالة بريجيت على أن تشجع فيها الحرص على الاحتفال بالعيد فأشركتها فى شراء مستلزمات من الزينة وأن بدت هذه نافهة فى السنوات السابقة. فقد كانت عادة تقضى العطلات المدرسية فى المزرعة. أما هذه السنة فقد قررت أن تقضيها فى الشقة مع بريجيت إذ لم يكن لها سوى يوم عطلة واحد من العمل.

وكانت جولى فى كثير من الاحيان تبدو مبتهجة تماما ولكنها كانت أيضا تتبادل مع خالتها نظرة معينة تتبعها دائما تهديدتان صامتتان. لم تكن لتخدع نفسها أو خالتها، فقد كان ستيف لا يزال يحتل المكان الوحيد فى قلبها. كان هناك حفلة ميلاد صغيرة للمرضى فى مؤسسة التمريض، وكان معظمهم من المسنين. وكانت جولى قد تطوعت للخدمة ساعات أطول وللمعاونة فى أعمال التنظيف. وراودها شعور متزايد بالاحباط عن ذى قبل وهى تحس بترتيب الميلاد تتردد فى أذنيها. وربما كان ذلك لأن كثيرين من المرضى كانوا بلا عائلات، أو أن عائلاتهم لم تكن راغبة فى إيوائهم. وزاد خوفها من المستقبل.

وعندما خطت جولى خارج بيت التمريض رفعت ياقة معطفها حول رقبتها لتحمى نفسها من برد الرياح الشمالية، وأحسّت بصوت الجليد يتشقق أسفل حذاءها بينما كانت ذرات الثلج المتناثرة فى الهواء تنبئ بمزيد من الجليد قبل أن يحل الصباح. وربت يديها على لوحة أجهزة القياس التابلوه فى سيارتها للفولكس واغن يحب واعزاز عندما دار المحرك مع أول حركة من المقتاح. وكانت تحمد الله لقرب مسكنها من العمل فى مثل تلك الأجواء السيئة. وبدأت أفكارها تشرذم عائدة من جديد الى لويزيانا، والى ستيف، كمعاداتها عندما تحرر من واجبات العمل. وكم تمنّت أن يفعل الزمن فعله فيطفىء تلك الذكريات ولكن لم يفعل. كان يكفيها أن تغمض عينيها لتحس من جديد بذراعى ستيف حولها. وعند ذاك فإن نبضها السريع فى دقاته، وقلبيها المتألم فى خفقاها، يسخران من أمانها لمسخية فى أن تنسى.

وأوقفت السيارة أمام الشقة الكائنة فى الدور الأرضى. واصطنعت فى حزم ابتسامة على وجهها قبل أن تعدو الى المبنى. كانت هذه لعبة تعودت أن تلعبها لترفع من روحها المعنوية المنهارة وربما عادت اليها جذوتها الطبيعية فى يوم من الايام، وكان ذلك ما أوحى اليها به تفكيرها. وصاحت فى مرح وهى تغلق

باب الشقة خلفها وتقلعه بالمفتاح قبل أن تخلع معطفها وتعلقه على المشجب في الصالة: «أنا فقط. أعتقد أن الجو سيكون في الخارج عاصفا الليلة.» وأخذت تدلك ذراعيها بقوة لتؤكد ما قالته وهي تخطو من الردهة الصغيرة إلى حجرة المعيشة. كانت خالتها تجلس على كرسيها المفضل بجانب الباب مباشرة وعيناها البنيتان تلمعان في عيب باتجاه جولي:

«هذا هو وقت عودتك تقريبا. هناك زائر ينتظرك.»

كانت حجرة المعيشة تمتد على يمين جولي. وتبعت عيناها المتسائلتان نظرة خالتها التي تتدق في ذلك الاتجاه. وكان ستيف يقف قرب مائدة صغيرة يحمل في يده منظرا من مناظر عيد الميلاد حصل عليه أخيرا. كان يرتدى كنزة لها حواش بيضاء فوق بنطلون من الجلد بنى اللون. ولكن عيني جولي التجذبتا إلى عتيبه الزرقاوين، وأسرتا إلى أعماقها. وشحب لون وجهها. لقد كان ستيف أكثر رسامة مما تصورته. وسألته في خشونة وهي لا تدري أن خالتها قد خرجت في هدوء من الحجرة.

«ماذا تفعل هنا؟»

وأجاب ستيف في هدوء بصوته المتهدج بعدما خطا خطوة نحوها:

«لقد جئت لأراك.»

«أخرج من هنا. لا أريد أن أراك.»

وامتدت يدها إلى حلقها لتخفق العبرات الواضحة. وواصل في تصميم قائلاً:

«لدي ما أريد أن أقوله لك.»

واستدارت في سرعة وهي تقول: «لا أريد أن أسمع.»

وكانت على وشك أن تهرب إلى حجرتها لولا أن يديه أوقفتها وأطبقتا على كتفيها. ووجدت نفسها عاجزة عن مقاومة رغبتها في أن تدرب بين ذراعيه. وتعمت في أذنها: «سأقول وليكن ما يمكن.»

كان العطر المنبعث منها يمتزج مع عطره الخدر وأضاف:

«وإذا أصررت على أن أخرج بعد أن أقولها.. فسوف أخرج.»

وأغلقت جولي عينيها بإحكام، وهي لا تختل ا اقتراب منها:

«أرجوك باستيف.. دعني أذهب. لم يعد للكلام معنى بعد الآن.»

«حتى ولو قلت إنني أحبك.»

ووجدت نفسها تلتصق بصدره وأحسست في عناق قاس تناول شعرها وتابع:

«لم يكن في نيتي على الإطلاق أن أقع في حبك بل يعلم اله أنني حاولت أن أتجنب هذا الحب بل حاولت أن أتسك. ولكن صورتك كانت تطاردني حتى قبل أن تتركني لويزانا. وكل ما قلته عن عدم الزواج وعدم الإيمان بالحب كنت أحدث به نفسي. لقد كنت رجلا كثير الاحتجاج.»

وغمرتها أمواج من النشوة ولكنها رفضت أن تستسلم لها. لقد جربت مثل ذلك كثيرا في الشهور الأخيرة، وعاشت ذكريات عديدة مؤلمة. حتى عندما كان قلبها يحبه كان عقلها يقاوم ذلك بشدة. وسألته:

«حتى عندما أخذت كلودين معك إلى نيواورليانز؟»

وأجابه ستيف بذراعيه بحيث يتسنى له أن ينظر إلى وجهها وقال: «كنت أعرف أنك اعتقدت أنني فعلت ذلك، وربما حرصت أنا على أن تعلمي به. لقد طلبتني وطلبت مني أن أخذها معي. ولكنني أقسم لك أن كلا منا كن بقيم في فندق مستقل. وأما ذلك القميص الملون الذي تحدثت عنه فقد أخذته من أحد محلات التنظيف يوم بارحنا نيواورليانز وتركته في السيارة.»

«لماذا لم تقل لي ذلك.»

«كنت على استعداد لسوء التفسير، وكنت تريد أن تجعليني أصدق أنني مجرد خيال عابر في حياتك. غرام على ظهر سفينة.»

واعترفت جولي في شيء من الحياء:

«لم يكن أبدا كذلك.»

وألح عليها وقد عادت الضراوة إلى عينيها:

«هل أنت متأكدة يا جولي؟ متأكدة تماما؟ لأن هذه الاشهر الأخيرة التي قضيتها من دونك كانت جحيما بالنسبة إلي.»

والثفت ذراعاها حول عنقه وجذبت رأسه تجاهها. كان شعورها هو شعور من يعود إلى وطنه بعد غياب طويل. ولم يعد هناك مكان للكلام. وجاء صوت الخالة بريجيت من الخارج يقول:

«هل أترك لكما بضع دقائق أم أدخل على الفور؟»

ورد ستيف:

«أدخلي أن ابنة شقيقتك تصرف في شيء من البهجة. أعتقد أنها في حاجة شديدة إلى رقيقة.»

وعلقت الخالة بريجيت في شيء من الرضى والسعادة قائلة:

« الأفضل أن تقول انها بحاجة الى وصيفة شرف »
وعانت ستيف جولى وهو يقول:
« فكرى فى هذا الأمر انها العصفورة الصغيرة »
وأضاف:

« سواء قلت لك ذلك من قبل أم لم أقله، فسوف نتزوج فور حصولنا على ترخيص وإيجاد كاهن يتم اجراءات الزواج. ان كامبيرون هول بحاجة الى جولى انطوايت كامبيرون أخرى لتكون سيدة القصر. كم أن سيد القصر أيضا بحاجة اليها. »

وحدثت جولى بحب كبير فى وجهه، وقالت: « لقد كان ذلك عرض زواج فى وجود شاهد ياسيد كامبيرون وأمام الشاهد نفسه أعلن قبولي. »
وابتسمت خالتها وقالت: « لأعتقد أن ستيف كان ينوى أن يترك لك فرصة للاختيار. ليس لدى ما أقدمه فى هذه المناسبة الاشراب الكاكاو. »
وعلمت جولى:

« هل أقدم المساعدة؟ »

ورفضت خالتها ذلك بحزم.

وقال ستيف موجه الكلام الى خالتها، وهو يضع ذراعه حول جولى ويحيطها بحبه:

« قبل أن أنسى لقد أخبرتنى جولى أنك المسؤولة عن تمكثها من القيام بالرحلة الى لوزيانا. وأريد أن أقدم لك الشكر على ذلك من كليتنا. وإذا لم يكن لدى جولى اعتراض فسوف نسعى ابتنا الأولى باسمك. »

ولمعت عينا المرأة المعجوز بالدموع وقالت:

« هذا فقط اذا كنت سأحضر حفل ترميدها. »

وعلمت جولى: « لنعتبر أن هذا قد تم. »

وتركت خالتها الغرفة على عجل وهى تقول:

« حسنا.. من الأفضل أن أسرع بتحضير الكاكاو. »

وحدث ستيف اليها بشعور دافئ يكاد لا يصدق وقال:

« هل ضابقت هذا؟ »

وغطت وجنتيها حمرة الخجل، وهى تقول: « لقد كان شيئا رائعا. ومع ذلك يمكن أن يكون لنا أولاد كذلك. »

« سنظل نحاول حتى نحصل على ما نريد. وفى هذه اللحظة لا يهمنى أن يكون لى طفلان أو عشرة أطفال أو حتى عشرون طفلا. أن كل ما أريده هو أنت. أما أى شيء آخر فيكون بمثابة منحة، ولو أننى أعتقد أن ولدا واحدا وبتنا واحدة شيء عظيم. »

قالت لاهثة وهى تحديق فى وجهه تخشى ألا تراه ثانية:
« أوه يا ستيف.. أنتى أحبك كثيرا. »

كانت تلك دعوة لم يستطع أن يقاومها، بل لم تستطع جولى أن تقاوم وهى تقدم نفسها اليه. وهمس هو الآخر قائلا: « وأنا أحبك. »

تمت

LIILAS.COM